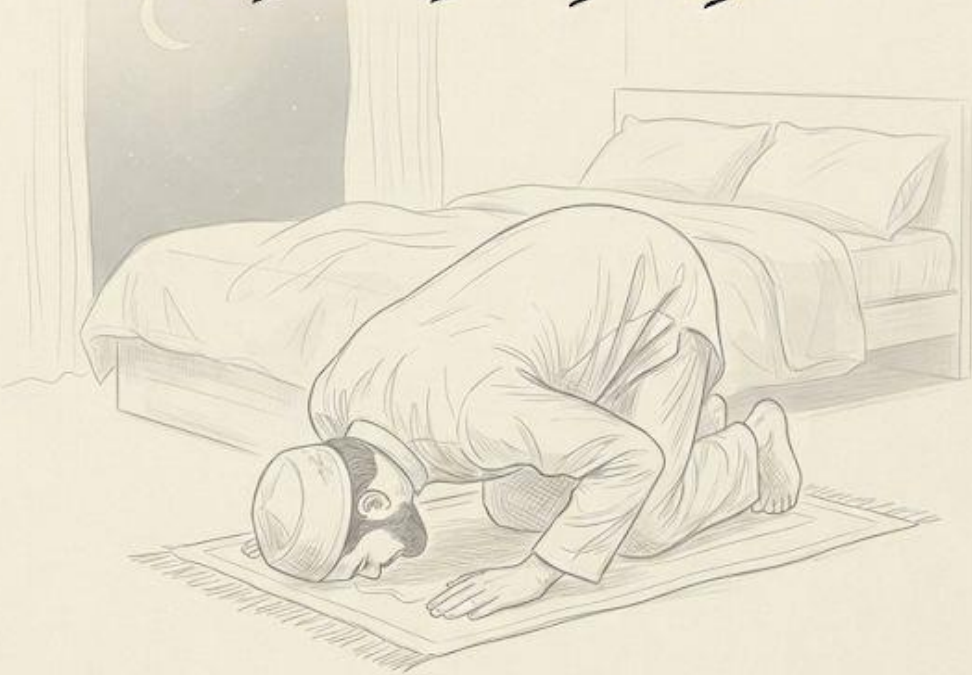


# سُورَةُ السَّجْدَةِ

هِنْدَسَةُ الْيَقِينِ

وَتَرْبِيَةُ الْإِنْسَانِ السَّاجِدِ



رَدَّادُ السَّلَامِي



# سُورَةُ السَّجْدَةِ

هِنْدَسَةُ الْيَقِينِ وَتَرْبِيَةُ الْإِنْسَانِ السَّاجِدِ

رداد السلامي

## بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الشيخ إبراهيم السكران: في أواسط سورة السجدة ذكر الله المؤشرات الظاهرة التي تدل على إيمان الباطن، حيث استفتحها بقوله (إنما يؤمن بآياتنا.. الآية) وفي ثنايا تلك المؤشرات صورت الآيات مشهد ذلك المؤمن الصادق، وهو في فراشه، تهاجمه ذكرى الآخرة فلا يستطيع جنبه أن يسترخي للنوم. تأمل قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

قلت هذا من أدق المواضع التي تكشف أن الإيمان في القرآن ليس دعوى ساكنة في الداخل، بل حقيقة لها أثر ظاهر على الجسد والزمن والاختيار.

فقله تعالى قبلها:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

جاء بصيغة الحصر: **إنما يؤمن**؛ كأن الآية لا تكتفي بتعريف المؤمن من جهة التصديق الذهني، بل تكشف علاماته الوجودية: كيف يتحرك إذا ذُكِّر؟ كيف ينكسر إذا سمع؟ كيف يتبدل وضع جسده أمام آيات الله؟ فالإيمان هنا ليس فكرة تقيم في العقل وحده، بل حياة كاملة إذا دخلت القلب ظهرت على هيئة سجود، وتسبيح، وانخفاض عن الكبر، ومجاهدة للنوم، وبذل مما رزق الله.

ثم تأتي الآية العجيبة:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

ولم يقل: يقومون من الليل فقط، مع أن هذا هو المعنى القريب، بل صوّر الحالة تصويرًا جسديًا بالغ الدقة: **الجنوب نفسها تتجافى**، كأن الفراش لم يعد موضع راحة خالصة، وكأن الجسد المؤمن صار يحمل ذاكرة أخرى تمنعه من الاستسلام الكامل للنعومة والدفع والسكون.

إن المضجع في العادة محلّ التسليم للنوم، وموضع سقوط الحواس بعد تعب النهار، لكن المؤمن هنا لا يترك جسده يذوب في الراحة؛ لأن في داخله يقظة أعمق من النوم، وخوفًا أصدق من التعب، ورجاءً أوسع من ظلمة الليل.

والتعبير بـ **تتجافى** بديع؛ لأن الجفاء ضد الملازمة والالتصاق، فكأن الجنب يريد أن يلتصق بالمضجع، لكن معنى الإيمان يدفعه دفعًا رقيقًا حازمًا إلى الانفصال عنه، ليست المسألة حركة جسدية فحسب، بل صراع بين ثقل الطين ونداء الروح، بين رغبة البدن في الراحة ورغبة القلب في النجاة، بين لذة النوم ولذة المناجاة.

ثم قال:

(يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا)

وهنا تتوازن النفس المؤمنة بين جناحين: **الخوف والطمع**، لا خوفًا يائسًا يقطع الطريق إلى الرحمة، ولا طمعًا مغرورًا يُسقط هيبة الحساب؛ بل خوف يوقظ، وطمع يفتح، خشية تمنع القلب من الأمن الكاذب، ورجاء يمنع من القنوط.

إنهم لا يقومون الليل لأنهم يثقون بأعمالهم، ولا لأنهم يطلبون صورة العباد في أعين الناس، بل لأن في القلب علمًا صادقًا بالله واليوم الآخر؛ علمًا إذا حضر في الليل أفسد على الجنب طمأنينة المضجع، لا إفساد قلقٍ مرضي، بل إيقاظ رحمة، كأن الآخرة حين تمرّ على القلب الصادق لا تمرّ فكرةً باردة، بل تمرّ كنداء: قم، فليس هذا أوان الغفلة.

ثم تختم الآية:

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

وهذا الترتيب عجيب؛ فالآيات جمعت بين عبادة الخفاء وأثرها الاجتماعي. فمن صدق في سجوده ليلاً لم يكن بخيلاً نهاراً؛ ومن تحرر من سلطان المضجع تحرر من سلطان المال؛ ومن قام لله في الظلمة امتدت يده للخلق في العلانية. فالإيمان القرآني لا يصنع إنساناً منسحباً من العالم، بل يصنع إنساناً له سرّ مع الله، وله أثر في الناس.

وكأن بنية الآيات تقول:

الإيمان يبدأ من الانكسار أمام الآية، ثم يظهر في تنزيه الله عن كل نقص، ثم يطهر النفس من الكبر، ثم يوقظ الجسد في الليل، ثم يفتح اليد بالعطاء.

وهذا من أعظم ما في سورة السجدة؛ أنها تجعل السجود ليس حركةً معزولة، بل هندسة كاملة للعبد: جبهة تنخفض، ولسان يسبح، وقلب لا يستكبر، وجنب لا يطمئن للغفلة، ويد لا تمسك الرزق عن حقه.

فالأية لا تصف فقط قيام الليل، بل تصف إنساناً غلبت عليه الآخرة حتى صارت ذاكرته أقوى من فراشه، ويقينه أصدق من نعاسه، ومناجاته لربه أرحم به من نومٍ طويل لا يوقظه من غفلته.

وانطلاقاً من جاءت فكرة مشروع هذا الكتاب، لأن سورة السجدة ليست سورة وعظية فحسب، بل هي سورة بناء اليقين في الإنسان: تبدأ من جلال الوحي، وتمضي إلى خلق الإنسان، ثم تعرض موقف المكذابين من البعث، ثم تكشف علامات المؤمنين الصادقين، ثم تختتم بمشهد الانتظار الحاسم بين الرسول والمكذابين.

والكتاب يقوم على هذه الفكرة المركزية:

سورة السجدة تبني الإنسان الذي لا يسجد بجبهته فقط، بل يسجد بعقله حين يصدق الوحي، وبقلبه حين يوقن بالآخرة، وبجسده حين يجافي المضجع، وبماله حين ينفق، وبمصيره حين يختار أن ينكسر لله قبل أن ينكسر بين يديه يوم لا ينفع الإيمان المتأخر.

## تَمْهيد

### لِمَاذَا سُورَةُ السَّجْدَةِ؟

ليست سورة السجدة من السور التي تُقرأ ثم تُترك في موضعٍ من الذاكرة العامة، بل هي سورةٌ تملك قدرةً عجيبةً على إعادة ترتيب الإنسان من داخله؛ لأنها لا تخاطب فيه جانباً واحداً من جوانب الوعي، ولا تقف عند معنىٍ منفردٍ من معاني الهداية، بل تمسك به من أصوله الكبرى: من جهة مصدر الحقيقة، ومن جهة نشأته الأولى، ومن جهة مصيره الأخير، ومن جهة موقفه من الوحي، ومن جهة أثر الإيمان في جسده ولبه وماله وانتظاره.

ولذلك لم اختر سورة السجدة لأنها تحمل مشهداً واحداً مؤثراً فحسب، وإن كان مشهد المؤمنين الذين (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) من أبلغ مشاهد القرآن في تصوير الصدق الخفي، بل اخترتها لأنها سورةٌ تكشف أن السجود ليس فعلاً معزولاً عن بنية الإيمان، وإنما هو ثمرةٌ لمعمارٍ كاملٍ من اليقين؛ يبدأ من الإيمان بالكتاب المنزل الذي لا ريب فيه، ويمرّ بالكون المخلوق المدبّر، والإنسان المخلوق من طينٍ والمكرّم بالتسوية ونفخة الروح، ثم يواجه سؤال البعث، وحقيقة الموت، ومشهد الندم، وسنة الابتلاء، قبل أن يصل إلى الصورة النقية للعبد المؤمن الذي إذا ذُكرَ بآيات ربه لم يستكبر، بل خرّ ساجداً، ودعا، وأنفق، وانتظر.

إن هذه القراءة لا تريد أن تزاحم كتب التفسير في مقامها، ولا تدّعي أنها تستغني عن ظاهر المعنى أو عن ميراث العلماء، بل تنطلق من احترام ذلك

كله؛ فالقرآن لا يُتدبَّر بقطع الطريق على التفسير، ولا يُفتح باب التأمل فيه بتعطيل أصول الفهم، وإنما يكون التدبر الصادق امتداداً للخضوع للنص، لا خروجاً عليه. ومن هنا كان مقصد هذا الكتاب أن يبدأ من المعنى الظاهر، ومن نظم السورة وترتيب مشاهدتها، ثم يحاول أن يرى ما تصنعه هذه المعاني في بناء الإنسان: كيف يتحول الخبر إلى يقين، واليقين إلى سجود، والسجود إلى قيام في الليل، والقيام إلى إنفاق، والإنفاق إلى انتظارٍ واثقٍ ليوم الفصل.

وسورة السجدة، في تقديري، من أكثر السور قدرةً على كشف العلاقة بين باطن الإيمان وظاهر الجسد. فهي لا تترك الإيمان دعوى مطلقةً في القلب، ولا تجعله فكرةً محبوسةً في الذهن، بل تقول لنا إن الإيمان إذا صدق ظهر أثره: في الجبهة حين تسجد، وفي اللسان حين يسبح، وفي النفس حين لا تستكبر، وفي الجنب حين لا يستسلم استسلاماً كاملاً للمضجع، وفي اليد حين تنفق مما رزقها الله.

وهذا من أعظم دروس السورة؛ أن القرآن لا يصنع إنساناً يتكلم عن الإيمان فقط، بل إنساناً يرى أثر الإيمان في هيئته واختياراته وخلواته وصلته بالناس.

وقد حاولت في هذه الصفحات أن أقرأ السورة بوصفها هندسةً لليقين لا مجموعةً من الآيات المتجاورة فحسب. فكل مقطع فيها يمهد لما بعده، وكل مشهد يفتح باباً للذي يليه: تنزيل الكتاب يمهد لردّ شبهة الافتراء، والخلق والتدبير يمهدان لفهم الإنسان، وخلق الإنسان يمهد لسؤال البعث، وسؤال البعث يمهد لملك الموت والرجوع، ومشهد المجرمين يمهد لفهم قيمة السجود في الدنيا، والعذاب الأدنى يمهد لمعنى الرجوع قبل فوات الأوان، ثم تأتي

آيات المؤمنين في قلب السورة كأنها الجواب العملي على كل ما سبق: إذا عرفت هذا كله، فكيف ينبغي أن تكون؟

ولعلّ سرّ هذه السورة أن اسمها ليس مجرد عنوانٍ خارجي، بل مفتاحٌ لمعناها كله. فالسجدة فيها ليست حركةً طارئَةً في أثناء التلاوة، بل خلاصة موقف الإنسان من الوحي والخلق والبعث والمصير.

من عرف أنه مخلوقٌ مربوبٌ راجعٌ إلى الله، وأن الكتاب حقٌّ من رب العالمين، وأن الموت ليس نهايةً بل رجوع، وأن الإيمان المتأخر لا ينفع عند الفتح، لم يبقَ أمامه إلا أن يسجد. والسجود هنا ليس هروبًا من العقل، بل اكتمال العقل حين يعرف حدّه؛ وليس إلغاءً للإنسان، بل إنقاذٌ له من أوهام العلوّ الكاذب؛ وليس ذلًّا للخلق، بل عزةٌ بالعبودية لله وحده.

ومن هنا جاء هذا الكتاب محاولةً للإصغاء إلى السورة في معمارها الداخلي: كيف تبني الإنسان الساجد؟ كيف تنزع منه الكبر؟ كيف توقظ ذاكرته الغيبية؟ كيف تعلّمه أن يقرأ الموت لا بوصفه فناءً، بل بوصفه توقّفًا ورجوعًا؟ كيف تجعله يرى التاريخ والطبيعة آياتٍ لا مشاهد صامتة؟ كيف تقيم في قلبه هذا التوازن العظيم بين الخوف والطمع، حتى لا يأمن أمن الغافلين، ولا ييأس يأس القانطين؟

إن القارئ لن يجد هنا تفسيرًا موسوعيًا يستوعب الأقوال، ولا بحثًا فقهيًا في مسائل السورة، ولا دراسةً لغويةً مفصلةً لكل لفظة، بل سيجد قراءةً تأمليةً تحاول أن تلتقط حركة السورة الكبرى، وتستخرج أثرها في تشكيل الوعي والقلب والسلوك.

والميزان الذي حاولت الالتزام به هو ألا يتحول التأمل إلى تحميل للنص ما لا يحتمل، وألا يتحول احترام الظاهر إلى جفاف يمنع القلب من تذوق الهداية. فبين الجفاف المنغلق، والتأويل المنفلت، توجد منطقة كريمة: أن نقرأ القرآن بعلم وخضوع ومحبة، وأن ندعه هو الذي يقود التأمل، لا أن نجعل التأمل يقود النص.

ولهذا فإن هذا الكتاب، قبل أن يكون شرحاً لسورة السجدة، هو دعوة إلى إعادة النظر في معنى السجود نفسه. كم من الناس يسجدون بأجسادهم، لكنهم لم يسمحوا للسجود أن يعيد بناء علاقتهم بالوحي، وبالمال، وبالنوم، وبالموت، وبالزمن، وبالأخرة. وكم من الناس يظنون أن السجود لحظة داخل الصلاة، مع أنه في القرآن أعمق من ذلك؛ إنه إعلان بأن الإنسان عرف أنه ليس إله نفسه، ولا مالك مصيره، ولا سيد الحقيقة، بل عبد يتلقى من الله، ويعود إلى الله، وينتظر حكم الله.

ولذلك أرجو أن تُقرأ هذه الصفحات لا كبحتٍ عن معلوماتٍ جديدة فقط، بل كمرافقةٍ داخليةٍ لسورةٍ تريد أن تفعل فينا ما فعلته في أوصاف المؤمنين: أن تجعلنا إذا ذُكرنا بآيات الله لم نستكبر، وأن توقظ فينا شيئاً من جفاء الجنوب عن المضاجع، وأن تفتح في قلوبنا دعاء الخوف والطمع، وأن تجعل الرزق في أيدينا طريقاً للإنفاق لا حجاباً عن الرازق، وأن تعلّمنا الانتظار الواثق في زمنٍ يكثر فيه استعجال المكذبين وسخرية الغافلين.

إن سورة السجدة تقول لنا، في بنائها كله: لا تنتظر حتى تنكسر رأسك اضطراراً؛ اسجد الآن اختياراً. لا تنتظر حتى تقول: أبصرنا وسمعنا؛ اسمع الآن وأبصر الآن. لا تنتظر حتى تطلب الرجعة للعمل الصالح؛ اعمل الآن.

لا تنتظر حتى يأتي الفتح فلا ينفع الإيمان؛ آمن الآن، واصبر الآن، وانتظر الآن. ومن هنا كانت هذه القراءة محاولةً لأن تضع القارئ أمام النداء العميق للسورة: أن يصير السجود في حياته ليس حركةً عابرة، بل هندسةً كاملةً لليقين.

## المقدمة الكبرى

### السجدة بوصفها انكسار الإنسان أمام الحقيقة

ليست سورة السجدة مجرد سورة قصيرة في عدد آياتها، ولا مقطعاً قرآنياً عابراً يمرّ على السمع مروراً مألوفاً، بل هي بناءً محكمٌ من أبنية اليقين، وسلّمٌ داخليّ يصعد بالإنسان من سؤال المصدر إلى سؤال المصير، ومن حقيقة الوحي إلى حقيقة الخلق، ومن نشأة الإنسان الأولى إلى رجوعه الأخير، ومن دعوى الإيمان التي قد تستقرّ في اللسان إلى علاماتها التي تظهر في الجبهة والجنب واليد والقلب، حتى كأن السورة كلها تريد أن تقول للإنسان: إنك لا تستطيع أن تكون مؤمناً بالآيات ثم تبقى كما كنت، لا في وضع جسدك، ولا في حركة قلبك، ولا في طريقة نظرك إلى الكون، ولا في استعدادك للآخرة.

إن عنوان السورة نفسه — السجدة — يضعنا منذ البداية أمام المعنى الجامع، فالسجود ليس حركةً بدنيةً معزولة عن أصلها المعرفي والروحي، وليس انحناءً طقوسياً يؤديه الإنسان ثم ينهض منه كأن شيئاً لم يتغيّر في داخله، بل السجود في عمق معناه القرآني موقفٌ كامل من الحقيقة؛ فهو إعلان الجبهة أن صاحبها عرف قدره، وإقرار القلب أن العظمة لله وحده، وشهادة الجسد أن الإنسان لا يكتمل حين ينتصب في غروره، بل حين ينخفض لله الذي خلقه وسوّاه وهداه وذكّره وأنذره وبشّره، سبحانه لا يُشبه خلقه ولا تحيط به العقول ولا تدركه الأبصار، وهو العليّ الكبير.

ومن هنا تبدأ السورة بدايةً حاسمةً بمصدر اليقين:

(الم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

فالسورة لا تبدأ بالإنسان؛ لأنها تريد أن تُخرجه من مركزية نفسه، ولا تبدأ بالعالم؛ لأن العالم إذا قُرى بلا وحي قد يتحوّل إلى صمتٍ هائل، ولا تبدأ بالموت؛ لأن الحديث عن الموت دون تأسيس مصدر الحقيقة قد يتحوّل في الوعي المضطرب إلى خوفٍ عابر، بل تبدأ بالكتاب: **تنزيل الكتاب**. كأن أول خطوة في صناعة الإنسان الساجد أن يعرف من أين يتلقى الحقيقة، وأن يتبين أن يقينه لا يقوم على ظنون النفس ولا على اضطراب الهوى، بل على الوحي المنزل من رب العالمين.

وهنا تظهر هندسة السورة: فهي لا تطلب من الإنسان أن يسجد قبل أن تضع بين يديه أسباب السجود؛ تعرض له الوحي، ثم الخلق، ثم التدبير، ثم النشأة، ثم أدوات الإدراك، ثم إنكار البعث، ثم مشهد الرجوع، ثم حال المجرمين، ثم أثر العذاب الأدنى، ثم علامات المؤمنين، ثم جزاء الخفاء، ثم الفصل بين المؤمن والفاسق، ثم سنن الهداية في بني إسرائيل، ثم الإمامة بالصبر واليقين، ثم الآيات التاريخية والكونية، ثم سؤال المكذبين المستعجلين، ثم خاتمة الانتظار. إنها سورة لا تنقل الإنسان إلى السجود دفعةً أعمى، بل تبنيه حتى يصبح السجود نتيجةً طبيعيةً للمعرفة الصادقة.

والسجدة هنا ليست نهاية الحركة وحدها، بل هي ذروة الوعي؛ لأن الإنسان إذا عرف أن القرآن تنزيلٌ لا ريب فيه، وأن الكون خلقٌ لا عبث فيه، وأن الإنسان لم يبدأ من نفسه ولن ينتهي إليها، وأن الموت ليس فناءً مطلقاً بل توفٍ ورجوع، وأن للغلبة عاقبةً، وللإيمان علاماتٍ، وللصبر إمامةً، وللتاريخ

سننًا، وللآخرة فتحًا لا ينفع معه الإيمان المتأخر، لم يبقَ له إلا أن يسجد؛ لا سجود الهارب من العقل، بل سجود العاقل الذي اكتمل عقله حين عرف أن أعلى مقامات الإنسان أن يكون عبدًا لله.

في سورة السجدة يتقدّم الوحي بوصفه الحقيقة الكبرى التي تعيد ترتيب العالم في داخل الإنسان. فالإنسان حين يفقد الوحي لا يفقد نصًا مقدسًا فحسب، بل يفقد ميزان القراءة: كيف يقرأ نفسه؟ كيف يقرأ الكون؟ كيف يقرأ الموت؟ كيف يقرأ اللذة؟ كيف يقرأ الألم؟ كيف يقرأ التاريخ؟ ولذلك كان من دقائق السورة أنها جمعت بين المشاهد الكبرى والمشاهد الحميمة: السماوات والأرض من جهة، والجنب الذي لا يستقر على المضجع من جهة أخرى؛ العرش والتدبير من جهة، والفراش والليل والدعاء من جهة أخرى؛ القرون الهالكة والآثار الباقية من جهة، والمؤمن المستيقظ في ظلمة بيته من جهة أخرى. فالسورة لا تترك اليقين فكرةً علويةً بعيدة، بل تنزله إلى موضع النوم، إلى لحظة التعب، إلى المال، إلى الخوف والطمع، إلى حركة الجسد حين تهاجمه ذكرى الآخرة فلا يملك أن ينام كالغافلين.

وهذا من أبداع ما في السورة: أنها تُظهر أن الإيمان ليس خفيًا خفاءً مطلقًا. نعم، أصل الإيمان في القلب، ومحلّ الصدق لا يطلع عليه إلا الله، لكن القرآن يعلمنا أن للباطن الصادق مؤشراتٍ ظاهرة؛ فإذا ذُكِرَ المؤمن بآيات الله خرّ ساجدًا، وإذا سجد سبح بحمد ربه، وإذا سبح لم يستكبر، وإذا جاء الليل لم يصبر فراشه سيدًا مطاعًا على قلبه، وإذا رزقه الله لم يحبس الرزق عن حقه. فالآيات لا تقول لنا: فتنشوا في قلوب الناس، بل تقول: انظروا كيف يصنع الإيمان الصادق إنسانه.

إن السورة تضع مقابلةً بديعةً بين صنفين من الانخفاض: انخفاض المؤمن ساجداً في الدنيا، وانخفاض المجرم ناكس الرأس في الآخرة. الأول انخفاض اختيارٍ ونجاة، والثاني انخفاض اضطرارٍ وفضيحة. الأول يرفع صاحبه لأنه انكسر لله في زمن العمل، والثاني لا ينفع صاحبه لأنه انكسر بعد انكشاف الغيب وفوات الامتحان. ومن لم يتعلم أن يخفض جبهته لله طوعاً، فقد يرى يوماً ناكس الرأس قهراً، يقول: (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا)، ولكن البصر الذي يأتي بعد انتهاء المهلة لا يصنع إيماناً نافعاً، والسمع الذي يستيقظ بعد سقوط الحجاب لا يفتح باب العمل.

ومن هنا تكون سورة السجدة سورة إنقاذ قبل أن تكون سورة إنذار؛ فهي لا تذكر الآخرة لتكسر الإنسان كسر يأس، بل لتوقظه من سكر الغفلة، ولا تصف العذاب الأدنى إلا لتفتح باب الرجوع، ولا تعرض مصير المجرمين إلا لتجعل السجود ممكناً قبل أن يصبح نكس الرأس حتمياً. إنها سورة رحمة في صورة جلال، وسورة تربية في صورة حجاج، وسورة بناء في صورة إنذار، لأنها تضع الإنسان أمام الحقائق الكبرى قبل أن يفوته أو أن الاستجابة.

والكتاب الذي نشرع فيه ليس تفسيراً جامعاً للسورة بمعناه المدرسي، ولا يريد أن ينازع كتب التفسير موضعها، بل يريد أن يقرأ السورة قراءة معرفية وتأملية من داخل نظمها، يبدأ من ظاهر المعنى، ويصغي إلى ترتيب الآيات، ويستخرج البنية التي تنتقل بالإنسان من تلقي الوحي إلى صناعة اليقين، ومن اليقين إلى السجود، ومن السجود إلى قيام الليل، ومن قيام الليل إلى الإنفاق، ومن الإنفاق إلى قرة العين المخفية.

وسيطلاً الأصل في كل ذلك أن القرآن هو الهادي، وأن التأمل لا يكون صادقاً إلا إذا خدم النص ولم يتسلط عليه، واقترب من جلاله ولم يذبه في خواطر الإنسان.

إن سورة السجدة، في جوهرها، تجيب عن سؤال: كيف يُصنع الإنسان الساجد؟

فتجيب: يُصنع حين يعرف مصدر الحقيقة، ويعرف أنه مخلوق لا مالك، ومربوب لا مستقل، وراجع لا مقيم، ومكلف لا عابث، وأن أعضائه أمانة، وأن النوم ليس سلطاناً مطلقاً، وأن المال ليس ملكاً خالصاً، وأن التاريخ ليس حكاية ماضية، وأن الآخرة ليست رمزاً نفسياً ولا استعارة أخلاقية، بل واقع مؤجل، إذا جاء يومه لم تنفع البلاغة ولا الاعتذار ولا الإيمان المتأخر.

ومن هنا يمكن أن نقول إن السورة كلها سجدة طويلة؛ تبدأ بالكتاب المنزل، وتنتهي بالانتظار الواصل، وبينهما يُعاد تشكيل الإنسان حتى يتعلم أن السجود ليس هروباً من العالم، بل دخول صحيح إليه؛ لأن من سجد لله وحده لم يسجد للهوى، ولم يسجد للمال، ولم يسجد للخوف، ولم يسجد للشهوة، ولم يسجد لسلطان البشر، بل صار حراً بقدر عبوديته، عزيزاً بقدر خضوعه، مبصراً بقدر انكساره، يقظاً بقدر ما يجافي جنبه المضجع وهو يدعو ربه خوفاً وطمعاً.

## الفصل الأول

### تنزيل الكتاب وبناء مصدر اليقين

قال الله تعالى:

(الم) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

تفتتح سورة السجدة بالحروف المقطعة: (الم)، وهي من مفاتيح عددٍ من السور القرآنية، وقد وقف العلماء عندها طويلاً، فمنهم من فوض علم حقيقتها إلى الله، ومنهم من نظر إلى إشاراتها في سياق التحدي والإعجاز، خصوصاً أنها تأتي كثيراً قبل ذكر الكتاب، كأن القرآن يلفت الإنسان إلى أن هذا الكتاب المعجز مكوّن من جنس الحروف التي تنطقون بها، ومع ذلك يعجز البشر عن الإتيان بمثله.

وليس المقصود هنا أن نقطع بما لم يرد فيه قطع، بل أن نقف عند الأثر الذي تصنعه هذه البداية في النفس: إنها تفتح السورة بإيقاعٍ يوقظ السمع، ويمنع الدخول الرتيب إلى المعنى، ثم يأتي بعدها الإعلان العظيم: (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ).

ولفظ تنزيل ليس لفظاً عابراً؛ فهو يدل على أن القرآن ليس إنتاجاً أرضياً صاعداً من خيال إنسان، ولا تركيباً ثقافياً ولدته البيئة، ولا حكمةً بشريةً صاغها نبيٌّ من عند نفسه، بل هو تنزيل من عند الله، نازلٌ بالحق، متعالٍ في مصدره، داخلٌ في حياة الناس بهدايته. وهذا الفارق هو أصل الفوارق كلها؛ لأن من جعل القرآن نصّاً بشريّاً تعامل معه بوصفه قابلاً للتجاوز والإلغاء

والتحكيم عليه، أما من عرف أنه تنزيلٌ من رب العالمين، فقد عرف أن وظيفته الأولى ليست أن يقف فوق النص، بل أن يقف تحته متلقيًا، متدبرًا، مستهديدًا، خاضعًا للحق الذي جاء به.

وهذا المعنى شديد المركزية في السورة؛ لأنها ستبني بعد ذلك رؤيةً كاملةً للكون والإنسان والآخرة، ولا يمكن لهذه الرؤية أن تستقر في القلب ما لم يستقر أصل المصدر. فإذا اضطرب الإنسان في مصدر الوحي، اضطرب بعد ذلك في كل شيء: في معنى الخلق، وفي حقيقة التكليف، وفي إمكان البعث، وفي وظيفة الجوارح، وفي مصير المؤمن والفاسق، وفي قيمة الصبر واليقين. ولهذا بدأت السورة من الجذر لا من الثمرة، من الكتاب لا من السلوك، من المصدر لا من النتيجة.

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ): كلمتان تختصران انقلابًا كاملاً في المعرفة. فالإنسان بطبيعته يرى العالم من أسفل: من حاجته، وخوفه، وشهوته، وتاريخه، وبيئته، وضغط الحسّ عليه، لكن الوحي يفتح له نافذةً من فوق، لا بمعنى جهةٍ حسيةٍ تحيط بالله تعالى، فالله سبحانه منزّه عن مشابهة خلقه، بل بمعنى أن مصدر الهداية ليس محصورًا في التجربة الأرضية، ولا في العقل إذا تُرك وحيدًا بين ظنون النفس ومحدودية الحس. إن الوحي رحمةٌ لأن الإنسان لا يستطيع أن يرى الكلّ من داخل الجزء، ولا أن يحكم على المصير من داخل اللحظة، ولا أن يعرف الغيب من داخل الشهادة إلا بخبرٍ صادقٍ من العليم الخبير.

ثم تأتي الجملة الثانية: (لَا رَيْبَ فِيهِ).

وهنا لا يقول القرآن: لا ريب فيه لأنكم لا تشعرون بالشك، فالنفوس قد تضطرب، والقلوب قد تعتربها خواطر، والعقول قد تتعرض لشبهات، ولكن

المعنى أن الكتاب في ذاته حقٌّ لا يداخله باطل، وأن الريب ليس قائماً في حقيقته، بل قد يقوم في المتلقي إذا لم يُحسن النظر أو غلب عليه الهوى أو استسلم للكبر. فالقرآن لا يستمد يقينه من حالة الإنسان النفسية، بل من مصدره الرباني؛ إن اطمأن الإنسان فهو المنتفع، وإن اضطرب فالخلل في موضع التلقي لا في حقيقة المتلقى.

وهذه قضية بالغة الأهمية: أن اليقين القرآني ليس هشاً ينتظر موافقة المزاج البشري، ولا هو حقيقة تكتسب صدقها من قبول الجمهور، ولا من شهادة العصر، ولا من اعتراف النظريات المتغيرة، بل هو يقين لأنه من رب العالمين. ومن هنا كان قوله: ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ختاماً مؤسساً، لا مجرد إضافة تعريفية. فالذي أنزل الكتاب هو رب العالمين؛ أي ربّ كل ما سوى الله، الخالق المدبر المربي الهادي، الذي لا يخرج شيء عن ملكه ولا عن علمه، ولا تستقل عنه ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا يكون الإنسان خارج ربوبيته لحظة واحدة، وإن توهم أنه سيد نفسه.

ولفظ رب العالمين في هذا الموضع يفتح مجالاً واسعاً للفهم؛ فالقرآن ليس كتاب قبيلة، ولا خطاب بيئة مغلقة، ولا ثقافة جزئية، بل تنزيل من رب العالمين، ولذلك يحمل في داخله أفق الهداية للعالمين. وما دام مصدره رب العالمين، فإن خطابه للإنسان لا يقتصر على معالجة حالة تاريخية محدودة، بل يخاطب الأصل الإنساني الممتد: خوف الإنسان، غروره، إنكاره، شهوته، موته، حاجته إلى الهداية، توقه إلى الخلود، قدرته على السجود، قابليته للفسق، إمكان صبره ويقينه.

إن افتتاح السورة بهذه الآية ليس مجرد تأسيس عقدي، بل هو بناء نفسي للمتلقي. فقبل أن يسمع الإنسان عن خلق السماوات والأرض، وعن خلقه من طين، وعن ملك الموت، وعن المجرمين ناكسي رؤوسهم، وعن المؤمنين الذين تتجافى جنوبهم، ينبغي أن يعرف أن المتكلم هو الله، وأن هذا الكلام تنزيل، وأنه لا ريب فيه، وأنه من رب العالمين. فإذا استقام هذا الأصل صار ما بعده هدايةً وبياناً، وإذا اختلّ صار ما بعده مادة جدلٍ ومقاومة.

وهنا تظهر مأساة الإنسان الحديث، بل مأساة الإنسان في كل عصر حين يقطع المعرفة عن الوحي؛ إنه يملك أدوات كثيرة، لكنه يفقد المصدر الأعلى للمعنى. قد يعرف تركيب الجسد، لكنه يجهل لماذا أُعطي السمع والبصر والفؤاد. قد يدرس نشأة المادة، لكنه يعجز عن إدراك غاية الخلق. قد يصف النوم، لكنه لا يعرف لماذا يقوم بعض الناس من فراشهم في الليل خوفاً وطمعاً. قد يرى الموت يومياً، لكنه يحاول أن يحيله إلى حادثة بيولوجية لا أكثر، مع أن القرآن يراه توفياً ورجوعاً. وهذه هي وظيفة الوحي: لا أن يلغي أدوات الإنسان، بل أن يردّها إلى موضعها، وأن يمنعها من التحول إلى آلهة معرفية صغيرة تحاكم الغيب وهي لا تعرف إلا ما أذن لها أن تعرف.

ومن دقائق التعبير أن السورة لم تقل: هذا كتاب لا ريب فيه، بل قالت: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فالمشهد ليس للكتاب مجرداً، بل لحقيقة نزوله. إن القرآن حاضرٌ في الأرض، لكنه ليس أرضي المصدر؛ يُتلى بالألسنة، لكنه ليس صناعة ألسنة؛ يُكتب في المصاحف، لكنه ليس من جنس الكلام البشري في سلطانه وهدايته وإعجازه؛ يدخل التاريخ، لكنه لا يُحبس في التاريخ؛ يخاطب العرب بلسانهم، لكنه من رب العالمين.

ولذلك فإن أول امتحان في السورة هو امتحان التلقي: هل ستستقبل هذا الكتاب بوصفه تنزيلاً، أم ستتلقاه بوصفه نصاً قابلاً للمساومة؟ هل ستسمح له أن يعيد بناء نظرتك إلى نفسك، أم ستجرّه إلى حدود نفسك؟ هل ستسجد للحق حين يتبين لك، أم ستبحث عن حيلةٍ تبقي رأسك مرفوعاً أمام الوحي ولو كان مكسوراً أمام الهوى؟

إن اليقين في هذه الآية ليس يقيناً صახباً، بل يقين مؤسس؛ يبدأ من جملة قصيرة، لكنه يحمل كل ما سيأتي بعدها.

فالذي يؤمن بأن هذا الكتاب من رب العالمين لن يتعامل مع آيات الخلق كمواد فلسفية مجردة، ولن يتعامل مع البعث كاحتمال بعيد، ولن يتعامل مع الموت كخبر عادي، ولن يتعامل مع قيام الليل كناقلة هامشية، بل سيرى أن كل آية من آيات السورة تضيف لبنةً إلى معمار العبودية.

ومع ذلك، لا تفرض السورة هذا اليقين فرضاً أجوف؛ إنها بعد الافتتاح ستواجه الاعتراض مباشرة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾. وهذا من كمال القرآن في تربية العقل؛ لا يخفي الشبهة، بل يضعها في موضعها، ثم يكشف ضعفها. فالبناء القرآني لا يخاف من الاعتراض، لأنه لا يقوم على إبعاد الأسئلة، بل على ردها إلى ميزان الحق.

غير أن السورة قبل أن تنتقلنا إلى الاعتراض أرادت أن تضع الأصل: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ فالأصل أن الحق ثابت، ثم يأتي الإنكار طارئاً عليه، لا أن الإنكار هو الأصل والحق هو المتهم.

ومن هنا تبدأ تربية الإنسان الساجد: أن يعرف أن أول سجدة ليست سجدة الجبهة فقط، بل سجدة العقل حين يكفّ عن الاستكبار على الوحي، وسجدة القلب حين يتلقى كلام الله على أنه هداية لا مادة انتقاء، وسجدة النفس حين تقبل أن تُعاد صياغتها من مصدر أعلى منها. وبعد ذلك فقط يمكن أن نفهم لماذا إذا ذُكِرَ المؤمنون بآيات الله خَرُّوا سَجْدًا؛ لأنهم لم يكونوا ينتظرون برهانًا جديدًا في كل لحظة، بل كانوا قد عرفوا المصدر، فلما جاء التذكير تحركت فيهم حقيقة اليقين.

ولعل من أعمق ما ينبغي تثبيته هنا أن قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ليس دعوة إلى إلغاء التفكير، بل إلى تطهير التفكير من الريب الفاسد. فهناك فرق بين سؤال يطلب البيان، وريب يريد الهروب؛ بين عقل يتدبر ليزداد بصيرة، ونفس تعترض لتبقى في مأمن من التكليف؛ بين من يقول: رب زدني علمًا، ومن يقول: لا أريد أن أسمع لأن السماع سيُلزمني. والقرآن لا يعادي العقل، لكنه يعادي كبرياء العقل حين يتحول من أداة هداية إلى ستارٍ يحجب الإنسان عن ربه.

إن السورة، منذ آيتها الأولى، تعيد ترتيب العلاقة بين الإنسان والكتاب: ليس الإنسان هو الذي يمنح القرآن قيمته، بل القرآن هو الذي يكشف للإنسان قيمته وموضعه ومصيره. وليس الإنسان فوق الوحي يحاكمه من برج ظنونه، بل هو أمام الوحي يتعلم كيف يحاكم ظنونه. وليس الكتاب تابعًا لاضطراب الإنسان، بل الإنسان هو المحتاج إلى أن يخرج من اضطرابه بالكتاب.

وهكذا فإن الآية الأولى بعد الحروف المقطعة تضع حجر الأساس لكل ما بعدها:

الكتاب تنزيل، والتنزيل لا ريب فيه، ومصدره رب العالمين. فإذا ثبت المصدر ثبتت الهداية، وإذا ثبتت الهداية ظهر معنى الخلق، وإذا ظهر معنى الخلق انكشف عبث إنكار البعث، وإذا انكشف البعث استيقظت الجوارح، وإذا استيقظت الجوارح جافت الجنوب المضاجع، وإذا صدق الخفاء جاء الجزاء بما لا تعلم نفس من قرّة أعين.

وبهذا نرى أن سورة السجدة لا تبدأ من السجود بوصفه فعلاً، بل من اليقين بوصفه أصل الفعل؛ لأن الجبهة لا تتخفّض بحق حتى ينخفض الكبر في الداخل، ولا ينخفض الكبر حتى يعرف الإنسان أن فوقه وحياً لا يُحاكم بالهوى، وأن أمامه ربّاً سيُرجع إليه، وأن تحته أرضاً بدأ منها، وأن جسده الذي يطلب الراحة ليس سيد المصير، بل أداة امتحان.

ومن هنا كان افتتاح السورة إعلاناً لا غنى عنه لكل قارئ: لا تدخل هذه السورة وأنت تريد أن تأخذ منها ما يوافقك وتترك ما يهزّك؛ ادخلها بوصفها تنزيلاً من رب العالمين، فإن فعلت، ستجد أنها لا تشرح لك السجود فقط، بل تصنع فيك الإنسان الذي لا يملك — إذا ذُكر بآيات الله — إلا أن يخرّ ساجداً، ويسبّح بحمد ربه، وهو لا يستكبر.

## الفصل الثاني

### الوحي في مواجهة اتهام الافتراء

قال الله تعالى:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ).

بعد أن قررت السورة أصل المصدر في قوله تعالى: (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، جاءت مباشرة إلى الاعتراض الذي يتكرر في تاريخ المكذبين كلما جاءهم وحي لا يوافق أهواءهم: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ). وهذه النقلة دقيقة؛ لأن القرآن لا يبني اليقين في النفس المؤمنة ببناء منفصل عن شبهات الواقع، بل يضع الشبهة أمام النور، ثم يكشف أن الظلام لا يصمد حين يواجه الحق في موضعه الصحيح.

والافتراء ليس مجرد تكذيب عادي، بل هو اتهام للمصدر، ومحاولة لعزل الخطاب القرآني عن أصله الإلهي، لأن المشركين كانوا يدركون أن المشكلة الكبرى ليست في مجرد سماع كلامٍ بليغٍ أو موعظة مؤثرة، بل في الاعتراف بأن هذا الكلام من عند الله؛ فإذا ثبت أنه من عند الله، لم يعد للإنسان أن يناقشه من موقع المساومة، ولا أن يقبله حين يوافق هواه ويرفضه حين يخالفه، ولا أن يحوله إلى مادة أدبية محايدة يستمتع بها ثم يخرج منها سالمًا من التكليف.

ولذلك كان الاتهام بالافتراء محاولةً لقتل سلطان الوحي قبل أن يدخل إلى القلب.

إن الإنسان حين لا يريد أن يخضع للحق قد لا يبدأ دائماً بإنكار جماله أو قوته أو أثره، بل قد يذهب إلى مصدره، فيقول: هذا من عند بشر. وهذه طريقة نفسية عميقة في الهروب؛ لأن الاعتراف بجلال الخطاب مع نفي مصدره الإلهي يتيح للمكذب أن يحتفظ بشيء من الانبهار دون أن يدفع ثمن الطاعة. يستطيع أن يقول: هو كلامٌ جميل، لكنه ليس وحيًا؛ هو بيانٌ مؤثر، لكنه ليس تنزيلاً؛ هو حكمةٌ عالية، لكنها ليست أمراً من رب العالمين. وهكذا يُفرغ النص من سلطانه مع إبقاء شيءٍ من قيمته الجمالية أو الأخلاقية، حتى لا يشعر القلب أنه يفرّ من الله.

لكن القرآن لا يترك هذا الادعاء معلقاً، بل يضربه بجملةٍ فاصلة:

(بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ).

و«بل» هنا ليست انتقالاً لغوياً فحسب، بل إبطالٌ للقول السابق، وردٌ حاسمٌ على محاولة التشويش. فالقرآن لا يكتفي بأن يقول: لم يفتره، بل يثبت الحقيقة الكبرى: (هُوَ الْحَقُّ). وهذا التعبير أبلغ من أن يقال: هو صدق؛ لأن الصدق قد يكون خبراً مطابقاً للواقع في جزئيةٍ محددة، أما الحق فهو الثابت الذي تقوم به الأشياء، وتنظم به المعاني، وتتكشف به الغايات، ويزول به الزيف. فالقرآن ليس صادقاً في أخباره فحسب، بل هو حقٌّ في مصدره، وحقٌّ في مقاصده، وحقٌّ في أحكامه، وحقٌّ في بنائه للإنسان، وحقٌّ في كشفه لمصير العالم.

ثم قال: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾، بعد أن قال في الآية السابقة: ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وهذا التناسب بديع؛ فالأول يقرر العموم: رب العالمين، والثاني يقرر الخصوص في مقام الرسالة: ربك. كأن السورة تقول للنبي ﷺ: هذا الكتاب من رب العالمين في سلطانه وعموم هدايته، وهو من ربك في تثبيتك وتكريمك وتكليفك بالبلاغ. فالوحي ليس فكرةً معلقةً في فضاء المعرفة، بل رسالةٌ يحملها رسول، وأمانةٌ تنزل على قلبٍ مصطفى، وتكليفٌ يواجه به قومًا يحتاجون إلى الإنذار والهداية.

ثم يأتي بيان الوظيفة:

﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

والإنذار هنا ليس تهديدًا مجردًا، ولا خطابًا قائمًا على التخويف المنفصل عن الرحمة، بل هو إيقاظٌ للإنسان قبل أن يقع في العاقبة التي لا يستطيع دفعها. فالإنذار في القرآن من أعظم صور الرحمة؛ لأن من تركك تمضي إلى الهاوية دون أن يوقظك لم يرحمك، ومن أخبرك بالخطر قبل وقوعه فقد فتح لك باب النجاة. ولذلك جاء ختام الآية: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، فغاية الإنذار ليست صناعة الرعب في النفس، بل فتح طريق الهداية أمامها.

وهنا تتضح لنا طبيعة الوحي في سورة السجدة: إنه ليس خطابًا للتخويف وحده، ولا خطابًا للمعرفة المجردة وحدها، بل خطابٌ يبني الإنسان من خلال معرفةٍ تنتهي إلى هداية، وإنذارٍ ينتهي إلى رجوع، وتذكيرٍ ينتهي إلى سجود. فالحق الذي من ربك لم ينزل ليكون مادة جدلٍ بين المتخاصمين، بل لينذر من غفل، ويهدي من طلب، ويقيم الحجة على من كابر.

ومن المهم أن ننتبه إلى أن الآية لا تقول: لتتذر قومًا لا عقل لهم، أو لا قدرة لهم على النظر، بل تقول: ﴿مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾. فالاختياج هنا ليس نقصًا في أصل الإنسانية، بل غيابٌ للرسالة المباشرة المنذرة قبل بعثة النبي ﷺ فيهم. وهذا يجعل الوحي رحمةً تاريخيةً ومعرفيةً؛ إذ يأتي إلى قومٍ تراكت فيهم العادات، واستقرت بينهم التصورات، وورثوا من الوثنية ما جعلهم يأنسون بالباطل حتى كاد يبدو لهم طبيعيًا، فإذا بالقرآن يدخل عليهم لا ليضيف رأيًا إلى آرائهم، بل ليقب معيارهم كله.

واتهام الوحي بالافتراء يكشف في العمق مرضًا آخر: أن الإنسان قد يستثقل أن يكون الحق خارج سلطانه. فهو يريد حقيقةً يستطيع أن يصنعها، أو يعدلها، أو يفاوضها، أو يؤجل مقتضاها، أما أن تأتيه الحقيقة من عند الله، كاملة السلطان، عميقة النفاذ، كاشفةً لنفسه ومصيره، فهذا ما ترتجف له النفس المستكبرة. ولذلك كان الكبر هو الجذر الخفي لكثيرٍ من التكذيب؛ وليس غريبًا أن تظهر في قلب السورة علامة المؤمنين: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، فكأن السورة تربط بين رفض الافتراء والإيمان بالحق من جهة، وبين السجود وترك الاستكبار من جهة أخرى.

فالمشكلة ليست في الدليل وحده، بل في هيئة القلب أمام الدليل. القلب المتواضع إذا ذُكِّرَ خرَّ ساجدًا، والقلب المستكبر إذا سمع قال: افتراء. الأول يرى في الوحي نداء ربه، والثاني يرى فيه تهديدًا لسيادته الوهمية. الأول ينكسر للحق فيرتفع، والثاني يحاول كسر الحق باتهامه فينحدر.

وهنا نرى أن السورة لا تعالج الشبهة معالجةً عقليةً باردةً فقط، بل تكشف ما وراءها من بنية نفسية: اتهام المصدر حتى لا يضطر الإنسان إلى الخضوع للمضمون.

ومن دقائق النظم أن الآية قالت: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بصيغة تحكي قولهم لا برهانهم، كأن المسألة عندهم دعوى تلوكها الألسن، لا حقيقة يقوم عليها الدليل. ثم جاء الرد: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، فجاء القرآن بحكم قطعي لا يساوي بين الحق والاتهام.

وهذا يعلمنا أن القرآن لا يمنح الشبهة أكثر من حجمها؛ يذكرها، يرد عليها، لكنه لا يجعلها مركز السورة. المركز هو الحق، أما الشبهة فطارئة عليه.

وفي هذا درسٌ منهجيٌّ لمن يقرأ القرآن في زمن كثرت فيه الاتهامات الحديثة للنصوص المقدسة، وتغيرت ألفاظها ولم يتغير جوهرها؛ فهناك من لا يقول اليوم: افتراه، لكنه يقول بمعانٍ قريبة: هو نصٌّ تاريخي، أو منتج ثقافي، أو تعبير عن عبقرية دينية، أو بنية رمزية، أو خطاب أخلاقي متجاوز المصدر. وهذه العبارات قد تبدو أكثر تهذيباً من اتهام الافتراء، لكنها في عمقها تؤدي الوظيفة نفسها: فصل القرآن عن كونه تنزيلاً من رب العالمين. فإذا تم هذا الفصل، أصبح النص قابلاً للتدوين في التأويلات، وللإخضاع الكامل لذوق القارئ، ولإلغاء الغيب، ولتحويل الآخرة إلى رمز، والملائكة إلى قوى نفسية، والشيطان إلى مجرد استعارة، والوحي إلى تجربة داخلية. وهنا لا يبقى من السجدة إلا شكلها، ولا من الإيمان إلا اسمه، ولا من القرآن إلا أثرٌ أدبيٌّ منزوع السلطان.

لكن سورة السجدة منذ أولها تقطع هذا الطريق: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾، ثم ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾. فلا تسمح للقارئ أن يدخلها وهو يريد أن يجعل الغيب رمزاً، أو البعث أثراً نفسياً، أو ملك الموت صورةً مجازيةً، أو قيام الليل مجرد حالة وجدانية؛ بل تضعه أمام حقائق الوحي كما جاءت: كتابٌ منزل، حقٌّ من الرب، إنذارٌ للهداية، خلقٌ وتدبير، موتٌ ورجوع، بعثٌ وحساب، عذابٌ أدنى وأكبر، مؤمنون ومجرمون، جنةٌ ونار، وانتظارٌ ليوم الفصل.

إن قوله تعالى: ﴿أَلَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يكشف الوجه الرحيم في هذه المواجهة. فالقرآن لا يفصح اتهامهم بالافتراء لينتصر لنفسه بمعنى بشري، فكلام الله غنيٌّ عن تصديق الخلق، وإنما يردّ الدعوى لينقذ المدعويين من أثرها؛ لأن من صدق أن القرآن مفترى أغلق على نفسه باب الهداية. فالشبهة ليست خطأً فكرياً معزولاً، بل حجابٌ عمليٌّ يمنع القلب من الانتفاع. ولذلك كان رد الشبهة رحمةً بالإنسان قبل أن يكون إقامةً للحجة عليه.

ولعلنا هنا نلمح أصلاً عظيمًا في السورة: أن الوحي لا يواجه الإنسان ليهزمه، بل ليهديه. نعم، قد يقهر كبريائه، وقد يفصح كذبه، وقد يردّ شبهته، لكنه يفعل ذلك لينقذه من نفسه. فالإنسان أحياناً يحتاج إلى أن تُكسر حجته الباطلة حتى ينجو قلبه، ويحتاج إلى أن يُعرى منطق الزائف حتى يرى الحق بلا حجاب. وليس كل تفكيكٍ للشبهة قسوة؛ قد يكون من أعمق صور الرحمة أن تُهدم الحيلة التي تحتمي بها النفس من الهدى.

ومن هنا نستطيع أن نفهم العلاقة بين هذا الفصل وما سيأتي من ذكر الخلق والبعث. فالذي يقول: افتراه، لن يرى في خلق السماوات والأرض آيةً دالةً على الخالق، بل سيرى كوناً مجرداً من الدلالة. ولن يرى في خلق الإنسان

من طينٍ ثم تسويته ونفخ الروح فيه آيةً على التكريم والتكليف، بل سيرى مادةً تطورت وانتهت. ولن يرى في السمع والبصر والفؤاد أماناتٍ تستوجب الشكر، بل أدواتٍ طبيعيةً للاستهلاك والمعرفة النفعية. ولن يرى في الموت توفياً موكّلاً، بل انطفاءً بيولوجياً. لذلك كان تثبيت مصدر الوحي هو بداية تصحيح كل قراءة لاحقة.

إن الذين قالوا: ﴿افْتَرَاهُ﴾ لم يكونوا ينازعون جملةً واحدةً في القرآن، بل كانوا ينازعون المعمار كله؛ لأن الاعتراف بأن القرآن حق من الله يعني الاعتراف بأن الإنسان ليس صاحب الكلمة الأخيرة في تفسير وجوده. وهذه هي نقطة الصراع الكبرى بين الوحي والكبر الإنساني: من يملك تعريف الإنسان؟ من يملك تفسير العالم؟ من يملك الإخبار عن المصير؟ من يملك أن يقول: هذا حق وهذا باطل، هذا هدى وهذا ضلال، هذا إيمان وهذا فسق؟ سورة السجدة تجيب من أولها: الله رب العالمين.

ثم تأتي رسالة النبي ﷺ في هذا السياق: ﴿لِتُنذِرَ﴾. فالرسول ليس مؤلفاً للنص، ولا مالِكاً للمعنى من عند نفسه، بل مبلِّغٌ عن ربه، منذرٌ بوحيه، هادٍ بإذنه. وفي هذا تكريمٌ عظيمٌ للنبي ﷺ؛ إذ جعله الله موضع تلقي الحق وبلاغه، وفيه أيضاً ردٌّ على دعوى الافتراء؛ لأن الرسالة قائمة على الأمانة لا الاختراع، وعلى التلقي لا التصنيع. فالذي يعرف مقام النبوة يعرف أن النبي لا يأتي بالوحي من ذات نفسه، وإنما يبلِّغ ما أوحى إليه.

والإنذار هنا يتضمن معنى الزمن؛ فهناك مهلةٌ قبل الفتح الأخير، وهناك فرصةٌ قبل أن يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه الإيمان المتأخر. ولذلك ستنتهي السورة بقوله تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾. فكأن السورة

كلها واقعةٌ بين إنذارٍ في البداية وانتظارٍ في النهاية؛ في البداية رحمة البلاغ، وفي النهاية حسم الموعد. وبينهما يُمتحن الإنسان: هل يستجيب للإنذار فيهتدي، أم يؤجل حتى يأتي الفتح فلا ينفعه الإيمان؟

إن الآية الثانية من سورة السجدة تجعلنا أمام ثلاث حقائق متتابعة: شبهة المكذبين، وحقيقة القرآن، ووظيفة الرسالة. الشبهة: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)، والحقيقة: (بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)، والوظيفة: (لِتُنذِرَ قَوْمًا... لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ). وهذا الترتيب بالغ الدقة؛ لأن الشبهة لا تُترك حتى تُعطل التلقي، والحقيقة لا تُذكر مجردةً عن مقصدها، والمقصد لا يُفهم إلا في ضوء الرحمة والهداية.

ولذلك فإن القارئ الذي يريد أن يدخل سورة السجدة دخولاً صحيحاً ينبغي أن يطهر موقفه من هذه الشبهة القديمة المتجددة: أن يتعامل مع القرآن كتتزيل، لا كمادة بشرية قابلة للاستعلاء عليها؛ وأن يرى في الإنذار رحمة، لا اعتداءً على راحته؛ وأن يفهم أن الحق قد يأتيه بما يزج عاداته، لا لأنه ضده، بل لأنه يريد إنقاذه من ضده الحقيقي: الهوى، والكبر، والغفلة، والنسيان، والركون إلى مضجع الدنيا.

إن قوله: (بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) يصلح أن يكون ميزاناً لكل قراءةٍ للقرآن. فإذا قرأنا آيات السورة عن خلق الإنسان، قلنا: هذا الحق من ربك. وإذا قرأنا آيات البعث، قلنا: هذا الحق من ربك. وإذا قرأنا مشهد المجرمين ناكسي رؤوسهم، قلنا: هذا الحق من ربك. وإذا قرأنا قيام الليل وخوف المؤمنين وطمعهم، قلنا: هذا الحق من ربك. وإذا قرأنا قرة الأعين المخبوءة، قلنا: هذا الحق من ربك. فلا نأخذ من السورة ما يوافق وجداننا ونترك ما يصادم غفلتنا؛ لأن الحق لا يتجزأ بحسب هوى المتلقي.

وهكذا يتبين أن الوحي في سورة السجدة لا يمرّ بلا مقاومة؛ فهناك دائماً من يريد أن يسميه افتراءً حتى لا يسمي نفسه عاصياً، ومن يريد أن يجعله بشراً حتى لا يعترف أنه مكلف أمام الله، ومن يريد أن يطفئ مصدره حتى لا يحرق نوره ظلمات النفس. لكن السورة تردّ ذلك كله بجملة واحدة حاسمة: (بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)؛ ثم تفتح باب الرحمة: (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ).

ومن هنا تكتمل اللبنة الثانية في بناء الإنسان الساجد: بعد أن عرف أن الكتاب تنزيلٌ لا ريب فيه من رب العالمين، يعرف الآن أن اتهام الوحي ليس إلا حيلةً من حيل الإغراض، وأن الحق لا ترحزه الألسن إذا قالت: افتراء، وأن وظيفة هذا الحق أن ينذر ليهدي، لا أن يخيف ليكسر. فإذا استقر هذا في القلب، صار مستعداً للانتقال إلى الأفق الكوني الأوسع، حيث ستعرض السورة خلق السماوات والأرض وتدبير الأمر، لتقول للإنسان: إن الذي أنزل الكتاب هو نفسه الذي خلق العالم، فلا تفصل كلامه عن كونه، ولا هدايته عن ربوبيته، ولا سجودك له عن أصل وجودك بين سماواتٍ وأرضٍ وما بينهما.

## الفصل الثالث

### خلق السماوات والأرض وهندسة التدبير

قال الله تعالى:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

بعد أن ثبتت السورة مصدر الوحي وردت على تهمة الافتراء، نقلت الإنسان إلى المشهد الكوني الأكبر: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾. وهذا الانتقال ليس انقطاعاً عن موضوع الكتاب، بل هو امتداداً له؛ فالذي أنزل الكتاب هو الذي خلق الكون، والذي خاطب الإنسان بالوحي هو الذي وضعه داخل هذا البناء العظيم، والذي يأمره بالسجود ليس قوةً مجهولةً ولا فكرةً مجردةً، بل الله الخالق المدبر، رب السماوات والأرض وما بينهما.

إن السورة هنا تعيد وصل ما يفصله الغافلون: الوحي والكون. فالكون ليس صامتاً في القرآن، والوحي ليس غريباً عن الكون؛ كلاهما من الله، غير أن الكون آياتٌ منشورة، والكتاب آياتٌ مقروءة، ومن جمع بينهما رأى العالم مربوباً والقرآن هادياً، ومن فصل بينهما قد يرى في الكون اتساعاً بلا معنى، وفي الوحي خطاباً بلا سلطان. ولذلك جاء ذكر الخلق بعد ذكر التنزيل،

ليعرف الإنسان أن القرآن لا يتكلم من خارج الوجود، بل من مصدر الوجود نفسه.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يفتح أمام القلب معنى الشمول؛ فليست القضية خلق موضعٍ دون موضع، ولا جانبٍ من الكون دون جانب، بل السماوات والأرض وما بينهما. كل ما يعلو الإنسان، وما يحمله، وما يحيط به، وما يقع بين العلو والسفل من عوالم لا يحيط بها علمه، كل ذلك داخل فعل الخلق، وداخل سلطان الربوبية. وهذا وحده كافٍ لإسقاط وهم الاستقلال البشري؛ فالإنسان الذي يعلو في كبريائه لا يخرج من أرض خلقها الله، ولا يستظل إلا بسماء خلقها الله، ولا يتحرك إلا بين عالمين خلقهما الله، فبأي شيء يستكبر؟

ثم قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. وليس المقصود هنا أن نخوض فيما لم يكلفنا الله بتفصيله، بل أن نلتقط دلالة النظام والتقدير والتدرج كما يليق بالنص. فالله سبحانه قادرٌ على أن يخلق ما شاء كما شاء، لا يعجزه شيء، لكنه يعلمنا من خلال هذا الإخبار أن الخلق ليس فوضى، وأن العالم ليس انفجاراً أعمى بلا قصد، بل بناءً مقدّرٍ جارٍ على حكمة الله. والزمن هنا ليس قيداً على القدرة، بل آية من آيات الحكمة؛ فالله يفعل ما يشاء، لا لعجزٍ عن التعجيل، بل لكمال علمٍ وحكمةٍ وتقدير.

ثم تأتي الجملة العظيمة: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾. وهذه من الآيات التي يجب أن يتعامل معها القلب المؤمن بتعظيم وتنزيه؛ فنثبت ما أثبتته الله لنفسه كما يليق بجلاله، من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل، مستحضرين أصل الأصول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. فالعرش مخلوقٌ عظيم، والاستواء حقٌّ

كما أخبر الله، لكن الكيفية لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز أن يتوهم القلب صورةً بشريةً أو معنىً حسياً يليق بالمخلوقين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وموضع هذه الجملة في السورة عظيم؛ فهي تأتي بعد ذكر الخلق لتقرر معنى السلطان والتدبير. فالكون لم يُخلق ثم تُرك، ولم يوجد ثم انفصل عن ربه، بل هو في ملك الله وتدبيره. ولهذا جاء بعدها مباشرة: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾. كأن الآية تقول: إذا كان الله هو الخالق المدبر، فإلى من تذهبون؟ من الذي يملك لكم ولايةً حقيقيةً إذا أعرضتم عنه؟ ومن الذي يشفع لكم من دونه إلا بإذنه؟ إن الاعتقاد بالخالق ليس معلومةً كونيةً محايدة، بل يترتب عليه سقوط كل ولاءٍ باطل، وكل اعتمادٍ موهوم، وكل شفاعَةٍ متخيلةٍ خارج سلطان الله.

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ يعيد الإنسان إلى فقره الأصلي. فالإنسان يحيط نفسه في الدنيا بأسبابٍ كثيرة: مالٍ، جاهٍ، عشيرةٍ، علاقاتٍ، قوةٍ، ذكاءٍ، قدرةٍ على المراوغة، لكنه حين يُردّ إلى أصل الحقيقة لا يجد من دون الله ولياً ولا شافعاً. وهذا لا ينفي ما أثبتته الله من الشفاعة بإذنه ولمن رضي، ولكنه يهدم الوهم الوثني القديم والمتجدد: وهم أن للإنسان مخارج مستقلة عن الله، أو وسائط تملك له النفع والنجاة بذاتها.

ثم يأتي السؤال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾. لم يقل: أفلا تعلمون فقط، بل قال: تتذكرون؛ لأن كثيراً من الحقائق ليست غريبةً تماماً عن فطرة الإنسان، لكنها تُنسى تحت ضغط العادة والهوى. فالكون يذكّر، والوحي يذكّر، والموت يذكّر، والابتلاء يذكّر، لكن الإنسان قد يعيش وسط الآيات كأنه في صحراء بلا

علامات. ومن هنا كانت وظيفة القرآن أن يعيد إلى الوعي ما طمرته الغفلة، وأن ينقل المعرفة من كونها معلومة ساكنة إلى تذكّر يوقظ القلب.

ثم قال تعالى:

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

هذه الآية تنقلنا من الخلق إلى التدبير. فالقرآن لا يقدم الله سبحانه بوصفه خالقاً بدأ العالم ثم انقطعت صلته عنه، تعالى الله عن ذلك، بل بوصفه الخالق المدبر، الذي لا تخرج الأمور عن علمه ولا عن أمره ولا عن قضائه. ولفظ ﴿يُدَبِّرُ﴾ يحمل معنى الإحكام، والترتيب، والتصريف على وفق الحكمة؛ فالعالم ليس متروكاً للعبث، ولا الأحداث سائبة في الفراغ، ولا التاريخ يمضي بلا علم محيط، بل هناك تدبير إلهي عظيم، نرى بعض آثاره وتخفى علينا تفاصيل كثيرة منه.

وقوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ يفتح إحساساً بالامتداد بين العلو والسفل، بين الأمر الإلهي ووقائع الأرض، بين ما لا يدركه الإنسان وما يراه. وهذا مهم في بناء اليقين؛ لأن الإنسان كثيراً ما يُفتن بالأرض، بما يحدث أمام عينيه، فيظن أن الوقائع تصنع نفسها بنفسها، وأن القوى الظاهرة هي صاحبة الكلمة الأخيرة. لكن الآية تقول: الأمر يُدَبَّر من السماء إلى الأرض. فما نراه في الأرض ليس مستقلاً عن تدبير الله، وما يجري في التاريخ ليس خارجاً عن علمه، وما يقع للإنسان ليس منفصلاً عن حكمته، وإن جهل الإنسان كثيراً من وجوه الحكمة.

ثم قال: ﴿ثُمَّ يَعرُجُ إِلَيْهِ﴾. وهذا التعبير يردّ الأمر كله إلى الله، بدايةً ونهايةً، تدبيراً ومآلاً. وليس المقصود أن الله يحتاج إلى رجوع شيء إليه، فهو الغني الحميد، وإنما المعنى أن الأمر كله واقع في سلطانه، صادرٌ بتدبيره، راجعٌ إلى حكمه، لا يستقل منه شيء. وهذا يربي القلب على ألا يقرأ الأحداث قراءةً مبتورة؛ فما بدأ من تدبير الله لا يجوز أن يفهم بعيداً عن غايته عند الله.

وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ يخلخل إحساس الإنسان الضيق بالزمن. فالإنسان يعدّ الأيام والسنين من داخل عمرٍ قصير، ثم يريد أن يقيس تدبير الله على عدّه المحدود. لكن الزمن في القرآن ليس مجرد ساعاتٍ تمرّ، بل أفقٌ يعلم الإنسان تواضع الإدراك. ما تراه بعيداً قد يكون قريباً في ميزان الله، وما تستعجله قد يكون له وقتٌ لا تعرفه، وما تظنه تأخراً قد يكون داخل تدبيرٍ أوسع من قدرتك على الحساب.

وهذا المعنى سيعود في نهاية السورة حين يقول المكذبون: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. فمن لم يفهم تدبير الله وزمن الله استعجل، وسخر، وقاس الوعيد على ساعته النفسية القصيرة. أما المؤمن فيتعلم من هذه الآية أن الله تدبيراً، وأن للأمور أجالاً، وأن الزمن ليس ملكاً للإنسان، وأن الانتظار في سبيل الله ليس فراغاً، بل جزءٌ من عبادة اليقين.

ثم تختتم هذه الوحدة بقوله تعالى:

﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وهذا الختام يجمع بين المعرفة والقدرة والرحمة. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: فلا شيء يغيب عنه، لا ما ظهر للخلق ولا ما استتر، لا ما وقع في العالم ولا ما

سيقع، لا ما أعلنه الإنسان ولا ما كتمه، لا حركة الجسد وهو ينهض من المضجع، ولا خوف القلب وطمعه في ظلمة الليل. وهذه الصفة بالذات تمهد لما سيأتي من الحديث عن الغيب والآخرة؛ فالذي يخبرك بالبعث، وبملك الموت، وبحال المجرمين، وبقرة الأعين المخبوءة، هو عالم الغيب والشهادة، لا متكلمٌ يظن أو يتخيل.

(الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ): العزيز الذي لا يُغلب، الرحيم الذي لا يخلو تدبيره من رحمةٍ وحكمة. وجمع الاسمين هنا عظيم؛ لأن الحديث عن الخلق والتدبير والعرش والرجوع قد يملأ القلب بجلال العظمة، فجاء اسم الرحمة ليمنع الفهم من أن يتصور التدبير قهراً محضاً، وجاء اسم العزة ليمنع الرحمة من أن تُفهم ضعفاً أو تساهلاً. فهو سبحانه عزيزٌ في رحمته، رحيمٌ في عزته، لا يشبه خلقه، ولا يُقاس فعله بأفعالهم.

وهذه الوحدة من السورة تبني في الإنسان الساجد إحساساً كونياً بالعبودية. فالسجود لا يعود حركةً فرديةً في زاوية ضيقة، بل يصير انسجاماً مع حقيقة الوجود كله. السماوات والأرض مخلوقة، والأمر مدبر، والغيب والشهادة معلومان لله، والولاية والشفاعة لا تكونان من دونه، فما معنى أن يبقى الإنسان وحده مستكبراً؟ وما معنى أن ينام قلبه عن ربِّ هذا خلقه وتدبيره وعلمه وعزته ورحمته؟

إن السورة كأنها تقول: قبل أن أحدثك عن جنبٍ يجافي المضجع، انظر إلى السماوات والأرض؛ فالجنب الذي ينهض في الليل ليس حركةً غريبةً عن الكون، بل هو عودة الإنسان إلى موضعه الصحيح داخل الوجود. وقبل أن أحدثك عن خوف المؤمن وطمعه، انظر إلى من بيده التدبير كله؛ فمن عرف

أن الأمر كله لله خافه، ومن عرف أنه الرحيم طمع فيه. وقبل أن أحدثك عن الإنفاق، انظر إلى من خلق ورزق ودبر؛ فمن عرف أن الرزق من الله لم ييخل به عن حق الله.

وهنا تظهر هندسة السورة بوضوح: الكتاب يثبت مصدر الحقيقة، والخلق يثبت مصدر الوجود، والتدبير يثبت استمرار السلطان، والعلم بالغيب والشهادة يثبت إحاطة الله بما خفي وما ظهر. فإذا اجتمعت هذه المعاني في القلب، لم يعد الإيمان فكرةً معلقةً، بل صار رؤيةً كاملةً تضع الإنسان في مكانه: عبدًا مخلوقًا، داخل كونٍ مربوب، متلقياً لوحى منزل، سائراً إلى رب يعلم سره وعلنه.

والذي يغيب عنه هذا المعنى قد يقرأ الكون قراءةً سطحية؛ يرى السماء سقفاً، والأرض موطنًا، والزمن تعاقبًا، والأحداث مصادفات، والجوارح أدوات، والموت نهاية، والنوم راحةً لا يرازعها شيء.

أما الذي يدخل سورة السجدة، فإنه يخرج من هذه القراءة الضيقة؛ يرى السماء متصلةً بالتدبير، والأرض ميدانًا للابتلاء، والزمن وعاءً للحكمة، والجوارح أمانات، والموت رجوعًا، والنوم امتحانًا صامتًا: هل يكون المضجع آخر سلطانٍ عليك، أم تقوم إذا نادتك ذكرى الله؟

إن قوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يبقى سؤالاً معلقاً في قلب هذا الفصل. فالمشكلة ليست أن الآيات قليلة، بل أن التذكر قليل. وليست الأزيمة أن الله لم يبين، بل أن الإنسان يعتاد البيان حتى لا يعود يهتز له. يرى السماء كل يوم فلا يسأل: من خلق؟ ويمشي على الأرض فلا يسأل: لمن الملك؟ ويعيش في تدبيرٍ لا

ينقطع فلا يسأل: من يدبّر الأمر؟ ويُرزق فينسى الرازق، ويُمهّل فينسى الحسيب، ويُذكّر فيعرض، حتى إذا جاء الموت قال ما لا ينفعه قوله.

ومن هنا كان التذكّر أول ممر إلى السجود. فالساجد ليس إنساناً عرف معلومةً جديدةً فحسب، بل إنسان تذكر الحقيقة التي غطاها الاعتقاد؛ تذكر أنه مخلوق، وأن له ربّاً، وأن فوق العالم تدبيراً، وأن وراء الشهادة غيباً، وأن العمر أقصر من أن يُستهلك في الغفلة، وأن الجبهة التي لا تسجد لله ستخفض يوماً على هيئة لا كرامة فيها إن أصرّت على الكبر.

وهكذا ينتهي هذا الفصل إلى لبنةٍ ثالثةٍ في بناء الإنسان الساجد: بعد أن عرف أن الكتاب تنزيل، وأن اتهام الافتراء حيلة إعراض، يعرف الآن أن الكون كله داخل خلق الله وتدبيره، وأنه لا ولي ولا شفيع من دونه، وأن الأمر لا ينفلت من علمه، وأن الغيب والشهادة مكشوفان له، وأن عزته ورحمته هما الإطار الذي يجب أن يُقرأ فيه الوجود. فإذا استقر ذلك في قلبه، صار مستعداً للانتقال من الكون الكبير إلى الإنسان الصغير، من السماوات والأرض إلى الطين والنطفة والروح والسمع والبصر والفؤاد؛ لأن السورة بعد أن عرّفته برب العالم، ستعرّفه بنفسه: من أين جاء؟ وكيف سُوي؟ وبماذا أُكرم؟ ولماذا كان قليل الشكر؟

## الفصل الرابع

### الإنسان بين الطين والتسوية ونفخة الروح

قال الله تعالى:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۖ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۖ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

بعد أن رفعت السورة بصر الإنسان إلى السماوات والأرض وما بينهما، وردت الأمر كله إلى الخلق والتدبير والعلم والعزة والرحمة، تنقله الآن إلى ذاته؛ إلى هذا الكائن الذي يظن أحياناً أن مركز المسألة كلها هو رأيه، أو لذته، أو سلطانه، أو عمره القصير، فإذا بالوحي يضعه أمام أصله الأول: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾. وكأن السورة تقول له: قبل أن تتكر، وقبل أن تستكبر، وقبل أن تسأل ساخرًا عن البعث، وقبل أن تركز إلى مضجعتك كأن الدنيا أبدية، انظر من أين بدأت.

لكن الآية لا تبدأ مباشرة بالطين، بل تبدأ بالقاعدة الأوسع: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾. وهذا التقديم بالغ الدقة؛ لأن خلق الإنسان لا يُقرأ وحده، بل يُقرأ داخل قانون الإحسان العام في الخلق. فكل شيء خلقه الله واقع في حكمة وتقدير وإحسان يليق به، لا بمعنى أن كل مخلوق حسن في نظر الإنسان أو في ذوقه المحدود، بل بمعنى أن خلق الله منزلة عن العبث والخلل، صادر عن

علم وحكمة، موضوع في موضعه الذي أراده الله. فالإنسان حين ينظر إلى نفسه يجب أن يقرأها ضمن هذا الإحسان: ليس وجوده خطأ، ولا تكوينه عبثاً، ولا أعضاؤه مصادفةً صماء، ولا قدرته على السمع والبصر والتفكر زائدةً بلا غاية.

وقوله: ﴿أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ يعلمنا أن الحُسن في القرآن ليس زخرفةً سطحية، بل إحكام في الصنعة، ومناسبة بين الخلقة والغاية، وتقدير يربط الشيء بوظيفته داخل نظام الوجود. فالطين حسن في موضعه، والماء المهيمن حسن في طوره، والتسوية حسنة في اكتمالها، والسمع والبصر والفؤاد حسن حين يؤدي وظيفته في الهداية والشكر. أما القبح فلا يأتي من أصل الخلق، بل من انحراف الإرادة، ومن تعطيل الأمانات، ومن أن يستعمل الإنسان ما أُعطيه لغير ما خُلق له.

ثم قال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾. والطين هنا ليس إهانةً للإنسان، بل تذكيراً بأصله حتى لا يطغى. فالقرآن لا يذكر طينية الإنسان ليحتقره، ولا ليختزله في مادته، بل ليمنعه من الغرور الكاذب.

إن هذا الكائن الذي يخاصم في ربه، ويجادل في بعثه، ويتكبر على الوحي، أصله من طين. وفي هذا الأصل الأرضي درس لا ينتهي: أن الإنسان مرتبط بالأرض من جهة تكوينه، لكنه ليس محبوساً في الأرض من جهة غايته؛ وأنه يحمل في جسده أثر البداية المتواضعة، لكنه يحمل في تكليفه معنى الارتفاع بالعبودية.

فالطين يرد الإنسان إلى التواضع، ولا يلغي كرامته. ومن لم يفهم هذا التوازن وقع في أحد انحرافين: إما أن يختزل الإنسان في الطين، فيجعله كائنًا غرائزياً

محضًا، لا يعرف إلا الطعام والجسد واللذة والبقاء؛ وإما أن يتجاهل طينيته، فيتخيل الإنسان روحًا مجردة بلا ابتلاء ولا ضعف ولا حاجة. أما القرآن فيبيني رؤيةً أعدل وأعمق: الإنسان من طين، لكنه ليس طينًا فقط؛ وله جسدٌ ينام ويتعب ويشتهي، لكنه ليس عبدًا للمضجع والشهوة؛ وله أصلٌ متواضع، لكنه دُعي إلى السجود الذي يرفعه.

ثم قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾. وهنا ينتقل النص من أصل الخلق الأول إلى استمرار النسل؛ من الطين إلى الماء المهين. و«السلالة» ما يُستخرج ويُستلّ، وفيها معنى الدقة والانتقاء والخفاء، أما «ماء مهين» فيذكر الإنسان بضعف مبدئه القريب، وبأن هذا الجسد الذي يعجب بنفسه بدأ من شيء لا يلتفت إليه الناس تعظيمًا. وهذا ليس تحقيرًا للخلق، بل تحطيمًا للكبر. فالإنسان الذي يُبهره شكله، وقوته، وصوته، ومنصبه، وحضوره في الناس، لو تذكر مبدأه القريب لانكسر غروره، ولعلم أن عظمته ليست من ذاته، بل مما أكرمه الله به بعد ضعفٍ وخفاء.

إن في قوله: ﴿مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ درسًا شديدًا للمتكبرين؛ فالذي يرى نفسه فوق الناس، أو فوق الوحي، أو فوق السجود، لم يتأمل أصل رحلته. لقد خرج من ضعف، ونما في ضعف، وسيعود إلى ضعف، وبين ضعفٍ وضعفٍ يمتحنه الله بشيءٍ من قوةٍ عارضة. فإذا جعل هذه القوة سببًا للاستكبار فقد خان ذاكرة الخلق. ولهذا كان من أعظم أبواب تزكية النفس أن يتذكر الإنسان بدايته، لا تذكرًا يزرع فيه احتقارًا مريضًا للذات، بل تذكرًا يرده إلى العبودية: أنت لم تصنع نفسك، ولم تختَر أصلك، ولم تمنح نفسك السمع والبصر والفؤاد، فكيف تتصرف كأنك مالكٌ مستقل؟

ثم تأتي الآية التي ترفع الإنسان من ضعفه إلى كرامة التكليف:

(ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ).

والتسوية هنا تدل على الإتمام والإحكام والتهيئة، كأن الإنسان لم يُترك مادةً مبعثرة، بل سواه الله على هيئة قابلة لحمل الأمانة، وأعطاه من التكوين ما يجعله صالحاً للابتلاء. ثم قال: (وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ)، وهذه إضافة تشريف وتكريم، لا إضافة جزء إلى الله، تعالى الله عن ذلك وتنزه؛ فالله سبحانه أحدٌ صمد، ليس كمثله شيء، وروح الإنسان مخلوقة من خلق الله، وإنما أُضيفت إلى الله إضافة تكريم واصطفاء وتشريف، كما يقال بيت الله وناقة الله، لا بمعنى أن شيئاً من ذات الله يحل في خلقه، بل بمعنى الاختصاص والتعظيم.

وهذا الموضع يجب أن يُقرأ بأقصى درجات التنزيه؛ فالآية لا تفتح باب تشبيه ولا حلول ولا امتزاج، وإنما تبني معنى الكرامة الإنسانية من جهة الخلق الإلهي والتشريف الرباني. فالإنسان مخلوق لله، وروحه مخلوقة لله، ونفخ الروح فيه فعلٌ من أفعال الله التي لا نعلم كيفيتها، ونؤمن بها كما وردت، مع تنزيه الله عن مماثلة خلقه. ومن هنا يصبح الإنسان كائنًا مكرمًا لا لأنه مستقل عن الله، بل لأنه مخلوقٌ مربوبٌ شرفه الله بما شاء من التسوية والروح والإدراك والتكليف.

وهنا يظهر التوازن العظيم في القرآن: الإنسان من طين، فلا يستكبر؛ وفيه روح، فلا ينحط. بدأ من ماء مهين، فلا يغتر؛ وسوي ونُفخت فيه الروح، فلا يبتذل نفسه. له جسد يشده إلى الأرض، وله قابلية للهداية ترفعه إلى السجود. فإذا نسي الطين طغى، وإذا نسي الروح هبط، وإذا جمع بين الذاكرتين عرف نفسه: عبدٌ مخلوقٌ مكرمٌ مكلف.

وهذا التوازن وحده يكفي لهدم كثيرٍ من التصورات الناقصة عن الإنسان. فالمادية الجافة لا ترى فيه إلا امتدادًا للطين والماء، والروحانيات المنفلتة قد تتجاهل بدنه وأرضه وغرائزه وحاجاته، أما القرآن فيرى الإنسان كما هو: مركَّبًا من ضعفٍ وتكريم، من ابتلاءٍ ونداء، من جسدٍ يثقل وروحٍ تطلب العلو، من فراشٍ يدعو للنوم وذكرى آخرةٍ تدعوه للقيام. ولهذا سيكون مشهد (تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) مفهومًا بعد هذه الآيات؛ لأن الجنب طينِيَّ يحب الراحة، لكن القلب المؤمن ليس أسير الطين وحده.

ثم قال تعالى:

(وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ).

بعد التسوية ونفخ الروح تأتي أدوات التلقي والإدراك: السمع، والأبصار، والأفئدة. وهذا الترتيب في السورة شديد الدلالة؛ فالإنسان ليس مخلوقًا جميل البنية فحسب، بل مخلوقٌ مُعطى أدوات الهداية. السمع يتلقى الوحي، والبصر يرى الآيات، والفؤاد يعي ويفقه ويتأثر ويختار. وهذه الأدوات ليست حياديةً بالمعنى الأخلاقي؛ إنها نعمٌ ستتحوّل يومًا إلى حجج، وأماناتٍ سيُسأل الإنسان عن وجه استعمالها.

والسمع يسبق الأبصار في الآية، كما في مواضع كثيرة من القرآن، ولعل من حكم ذلك أن السمع هو الباب الأول للتلقي، وخصوصًا تلقي الوحي؛ فالإنسان يسمع الآية قبل أن يرى أثرها في العالم، ويسمع الإنذار قبل أن يقع، ويسمع خبر الغيب قبل أن ينكشف. ومن هنا كان إعراض السمع من أخطر صور الغفلة؛ لأن من أغلق سمعه عن الوحي منع النور من الدخول إلى أعماق أبواب القلب.

أما الأبصار فهي لا تُعطى لمجرد الاستهلاك البصري ولا التمتع بالصور، بل لتكون طريقاً إلى الاعتبار: يرى الإنسان السماء والأرض، ويرى آثار القرون، ويرى الزرع الذي يخرج بالماء، ويرى الموت والحياة، ويرى ضعف المولود وشيخوخة القوي، فيتعلم. لكن البصر قد يرى ولا يبصر؛ يرى الأشكال ولا يدرك الدلالات، يرى الآيات ولا ينتقل منها إلى رب الآيات. ولذلك ستقول السورة لاحقاً: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾، لأن العمى الأخطر ليس عجز العين، بل عجز القلب عن قراءة ما تراه العين.

وأما الأفئدة فهي موضع الوعي العميق، والانفعال، والتدبر، والاختيار. ليست مجرد عقول باردة تحسب وتستنتج، ولا مجرد عواطف عابرة، بل مركزٌ داخليٌّ تتجمع فيه المعرفة والإرادة والخوف والرجاء. والفؤاد هو الذي إذا استيقظ بالآية لم يترك الجسد كما كان؛ هو الذي يوقظ الجنب من المضجع، ويفتح اليد بالإنفاق، ويمنع الإنسان من الاستكبار. فإذا فسد الفؤاد صارت الحواس أدوات للغفلة، وإذا صلح صارت الحواس أبواباً للهداية.

ثم تأتي الجملة المؤلمة:

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

بعد كل هذا الإحسان: خلقٌ، وتسويةٌ، وروحٌ، وسمعٌ، وأبصارٌ، وأفئدة؛ يأتي الحكم: قليلًا ما تشكرون. وهذا من أشد ما يكشف اختلال الإنسان. فالآية لا تقول: قليلًا ما تعلمون، بل قليلًا ما تشكرون؛ لأن المشكلة ليست في غياب النعمة، بل في غياب الاعتراف بحقها. الشكر هنا ليس كلمةً تقال، بل استعمال النعمة في وجهتها: أن يسمع السمع الوحي، وأن يبصر البصر الآية، وأن يفقه الفؤاد الحق، وأن يتحول الإدراك إلى سجودٍ وعملٍ.

قلة الشكر تعني أن الإنسان يأخذ أدواته من الله ثم يستعملها في نسيان الله. يسمع بها ما يلهيه عن الوحي، ويرى بها ما يعلق قلبه بالدنيا، ويفكر بها فيما يزيده استكباراً لا عبودية، ثم يظن أنه حرّ. وهذا من أعجب تناقضات الإنسان: أن يبارز ربه بأدواتٍ وهبه الله إياها. فالعقل الذي يُجادل به في آيات الله مخلوقٌ لله، واللسان الذي ينطق بالاعتراض نعمةٌ من الله، والعين التي ترى العالم ثم تنسى خالقه منحةٌ من الله، والقلب الذي يغفل عن الآخرة لم يكن ليخفق إلا بإذن الله.

ومن هنا نفهم أن الشكر في سورة السجدة ليس فضيلةً هامشية، بل هو مفتاح الإيمان العملي. فالمؤمنون الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع هم الشاكرون حقاً؛ لأنهم لم يتركوا نعمة الجسد تتحول إلى غفلة، بل جعلوا الجسد نفسه يدخل في العبودية. والذين ينفقون مما رزقهم الله هم الشاكرون حقاً؛ لأنهم لم يجعلوا الرزق حجاباً عن الرازق. والذين إذا ذُكِّروا بآيات الله خرّوا سجداً هم الشاكرون حقاً؛ لأنهم لم يتلقوا الآية كصوتٍ عابر، بل كنداءٍ يستحق أن يغيّر هيئة الإنسان.

وهنا تظهر البنية الدقيقة بين هذه الآيات وما بعدها. السورة تقول: لقد خُلِقْتُمْ من طين، ثم جُعِلَ نسلكم من ماء مهين، ثم سُويتم، ثم نُفِخت فيكم الروح، ثم أُعطيتم السمع والأبصار والأفئدة، ومع ذلك قليلٌ شكركم. وبعد قليل ستنقلنا إلى الذين أنكروا البعث فقالوا: (أَبَدًا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ). كأن إنكار البعث ثمرةٌ من ثمار قلة الشكر؛ لأن من شكر الخلق الأول لم يستبعد الخلق الآخر، ومن عرف نعمة البداية لم يكابر في قدرة الإعادة، ومن

علم أن الله أخرج من طينٍ وماءٍ مهين لم يقل مستنكرًا: كيف يعيدني إذا تفرقت في الأرض؟

إن الإنسان في هذه الآيات يقف أمام ذاكرته الكاملة: ذاكرة الطين، وذاكرة الماء المهين، وذاكرة التسوية، وذاكرة الروح، وذاكرة السمع والبصر والفؤاد. فإذا حفظ هذه الذاكرة صار متواضعًا شاكراً، وإذا فقدتها صار جاحداً مكابراً. ولهذا كان من وظائف القرآن أن يرد الإنسان إلى بداياته، لا ليحبسه فيها، بل ليمنعه من الكذب على نفسه. فمن تذكر أنه لم يكن شيئاً مذكوراً، وأن الله خلقه وسواه، استحيا أن يقف أمام آيات الله وقفة المستغني.

والأخطر أن قلة الشكر لا تظهر دائماً في صورة جحودٍ صريح؛ قد تظهر في صورة اعتياد. أن يعتاد الإنسان سمعه حتى لا يرى فيه نعمة، ويعتاد بصره حتى لا يشعر بثقله الأخلاقي، ويعتاد فؤاده حتى لا يسأل: ماذا أودعت فيه؟ وبماذا ملأته؟ ولمن وجهته؟ إن الاعتياد قد يكون حجاباً كثيفاً؛ لأن النعمة إذا طال أمدتها في اليد ظنها الإنسان حقاً طبيعياً، لا منحةً تستوجب الحمد والعمل. ولذلك تأتي الآية كصفعة وعي: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

وليست قلة الشكر هنا اتهاماً يُخلق الباب، بل تشخيصاً يفتح باب الرجوع. فمن عرف أنه قليل الشكر بدأ رحلة الشكر. ومن اكتشف أنه استعمل سمعه وبصره وفؤاده في غير وجهتها استطاع أن يعيد توجيهها. ومن رأى أن جسده الذي يطلب المضجع نعمةً لا سيّد، استطاع أن يرفعه من الفراش حين يدعوه الله. ومن علم أن أصل وجوده كله فضلٌ، لم يعد ينظر إلى الطاعة كعبءٍ ثقل، بل كأدنى جوابٍ ممكن على فيض النعمة.

إن هذه الآيات تبني في الإنسان إحساساً مزدوجاً: إحساساً بالضعف، وإحساساً بالكرامة. بالضعف لأنه من طينٍ وماءٍ مهين، وبالكرامة لأنه مسوًى منفوخٌ فيه من الروح، مُعطى السمع والأبصار والأفئدة. وهذا الإحساس المزدوج هو الذي يصنع العبودية السوية؛ عبودية لا تحتقر الإنسان حتى تئسسه، ولا تعظمه حتى تطغيه. تجعله يعرف أنه عبدٌ مكرم، لا إلهٌ صغير، ولا حيوانٌ عابر؛ مخلوقٌ بين بدايةٍ متواضعةٍ وغايةٍ عظيمة، بين أرضٍ حملته ووحىٍ يهديه وآخره تنتظره.

ومن هنا نفهم لماذا كان السجود هو العلامة المركزية في السورة. فالسجود يجمع هذه المعاني كلها في حركةٍ واحدة: الجبهة المصنوعة من طين تنخفض لله، والجسد الذي سُوي يخضع لمن سوّاه، والروح المكرّمة تتوجه إلى بارئها، والسمع الذي تلقى الآية يستجيب، والبصر الذي رأى الآيات ينكسر، والفؤاد الذي وعى الحقيقة يلين. فالسجود ليس عضواً واحداً يعمل، بل تاريخ الإنسان كله ينخفض في لحظة صدق أمام ربه.

إن الإنسان إذا قرأ هذه الآيات قراءةً صحيحةً لم يعد يستطيع أن ينظر إلى نفسه كما كان. لن يرى جسده مجرد ملكيةٍ شخصيةٍ يفعل بها ما يشاء، بل أمانةً مصنوعةً بإحسان. ولن يرى سمعه وبصره وفؤاده أدواتٍ خاصةً منفصلةً عن التكليف، بل نوافذٍ سيسأل عنها. ولن يرى النوم حقاً مطلقاً، بل نعمةً قد تُزاحمها عبادةٌ أعظم. ولن يرى المال رزقاً شخصياً خالصاً، بل عطاءً يقول له القرآن: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

وهكذا تكشف السورة أن الطريق إلى قيام الليل لا يبدأ عند المضجع، بل يبدأ من معرفة الإنسان بنفسه. فالذي لا يعرف أنه مخلوقٌ من طين، ومكرمٌ

بالروح، ومكفّف بالسمع والبصر والفؤاد، سيظن أن نومه مجرد راحة، وأن يقظته مجرد اضطراب، وأن طاعته مجرد خيارٍ زائد. أما الذي عرف هذه الحقيقة، فإن الفراش عنده لا يكون نهاية اليوم، بل قد يصير بداية المناجاة؛ لأن الجسد الذي جاء من الله لا يجوز أن يُعزل عن الله، والنعمة التي أُعطيت من الله لا يجوز أن تُستهلك في نسيانه.

وفي هذا الفصل تتكون اللبنة الرابعة من معمار الإنسان الساجد: بعد أن عرف مصدر الوحي، وردّ شبهة الافتراء، وتأمّل خلق السماوات والأرض وتدبير الأمر، يعود الآن إلى نفسه فيراها مخلوقةً بإحسان، مبتدأةً من طين، مستمرةً من ماءٍ مهين، مسوّاةً ومكرّمةً بنفخة الروح، مزودةً بالسمع والأبصار والأفئدة، ثم يسمع الحكم القرآني المؤلم: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾. فإذا هزّه هذا الحكم، فقد بدأت فيه قابلية السجود؛ لأن أول الشكر أن يعرف الإنسان أنه لم يصنع نفسه، وأن آخر الشكر أن يجعل نفسه كلّها لله.

## الفصل الخامس

### السمع والبصر والفؤاد: أماناتُ الشكر وشهودُ القيامة

لم تذكر سورة السجدة السمع والأبصار والأفئدة بوصفها تفصيلاً تابعاً لخلق الإنسان فحسب، بل بوصفها مفاتيح التكليف ومداخل الهداية ومواضع المسؤولية. فالإنسان لا يُمتحن لأنه موجودٌ فقط، بل لأنه موجودٌ مُدرك، يسمع ويرى ويفقه، ويتلقى الإشارة من خارج نفسه، ويصوغ منها موقفاً في داخل نفسه، ثم يتحرك في العالم على وفق ما قبله أو رفضه. ولهذا كان قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ إعلاناً بأن الإنسان لم يُترك عارياً من أدوات المعرفة، ولا معذوراً بالغفلة المطلقة، بل أُعطي ما يفتح له الطريق، ثم قيل له: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

واللافت أن هذه الأدوات تأتي بعد الحديث عن التسوية ونفخ الروح، فكأن اكتمال الإنسان لا يكون بمجرد البنية، بل بقدرته على التلقي والتمييز. فالجسد وحده لا يصنع إنساناً مؤمناً، والهيئة المستوية لا تكفي لصناعة العبودية، بل لا بد من سمعٍ يستقبل، وبصرٍ يعتبر، وفؤادٍ يفقه. ومن هنا تصبح الحواس في القرآن أكثر من منافذ بيولوجية؛ إنها أبواب أمانة، إن دخل منها النور صنعت إنساناً ساجداً، وإن دخل منها اللهو والكبر والغفلة صنعت إنساناً يجادل في البعث وينسى خلقه الأول.

السمع في هذه السورة له منزلة خاصة، وإن لم يُفصّل فيها طويلاً؛ لأن السورة كلها قائمة على التذكير بآيات الله، والتذكير لا يكون إلا بخطابٍ يُسمع ويتلقى.

المؤمنون الحقيقيون هم الذين ﴿إِذَا دُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾، وهذا يعني أن السمع عندهم ليس ممرًا للصوت، بل ممرًا للانكسار. يسمعون الآية فلا تبقى معلومة في طرف الوعي، بل تنفذ إلى موضع القرار، فتحرّك الجبهة، وتلين القلب، وتوقظ الجسد. أما المعرض فيسمع ولا يسمع؛ تمرّ الآية على أذنه كما يمرّ المطر على صخرٍ أملس، لا يمسك منه شيئًا، ولا يخرج منه حياة.

وهنا يظهر الفرق بين السماع والإنصات. السماع فعل حاسة، أما الإنصات ففعل قلب. كم من إنسان سمع القرآن، وربما حفظ ألفاظه، لكنه لم يسمح له أن يحاكم حياته. وكم من إنسان مرّت عليه آية واحدة فصارت منعطفًا في مصيره، لأنها لم تدخل من الأذن وحدها، بل دخلت من باب الخضوع. فسماع الوحي ليس كأبي سماع؛ إنه امتحان في هيئة استقبال. هل تسمع لتبحث عن مخرج من التكليف، أم تسمع لتجد طريقًا إلى الله؟ هل تسمع لتعارض، أم تسمع لتتطهر؟ هل تسمع وأنت فوق النص، أم تسمع وأنت عبدٌ أمام كلام ربه؟

ومن هنا كانت قلة الشكر في السمع أن يُصرف عن غايته. ليس كفران السمع أن يفقده الإنسان فقط، بل أن يملكه ولا يهتدي به؛ أن تكون له أذنٌ حاضرةٌ لكل ضجيجٍ عابر، غائبةٌ عن النداء الأعلى؛ أن يصبر على أصوات الدنيا ساعاتٍ طويلة، فإذا جاءه القرآن ضاق صدره أو استعجل نهايته؛ أن يسمع المديح فينتشي، ويسمع النصيحة فينقبض، ويسمع آيات الله فلا يتغير. إن السمع حين لا يقود إلى السجود يصبح شاهدًا على صاحبه، لا حجةً له.

وأما الأبصار، فهي الأداة التي يفتح بها القرآن كتاب العالم. فالسورة بعد قليل ستقول: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ

فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ  
فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿١١﴾. فالعين في القرآن  
لا تُعطى لتكديس الصور في الداخل، بل لتقرأ السنن والآيات. ترى آثار  
الهالكين فتتعلم أن القوة لا تمنع السقوط إذا انفصلت عن الحق، وترى الأرض  
الجرز يحييها الماء فتتعلم أن الإحياء بعد الموت ليس مستحيلًا على من يسوق  
الحياة إلى اليابس.

غير أن البصر قد يتحول إلى حجاب إذا وقف عند سطح المرئي. فقد يرى  
الإنسان الأرض الجرز ثم لا يرى إلا ظاهرة زراعية، ويرى مساكن الهالكين  
ثم لا يرى إلا أطلالًا تاريخية، ويرى السماء والأرض ثم لا يرى إلا مادةً  
ممتدة، ويرى جسده ثم لا يرى إلا لحمًا ودمًا. وليس المطلوب إلغاء المعرفة  
الطبيعية أو السننية، بل ردها إلى معناها الأعلى؛ فالقرآن لا يمنعك أن تعرف  
كيف ينزل المطر، لكنه يمنعك أن تنسى من يسوق الماء؛ ولا يمنعك أن تدرس  
آثار الأمم، لكنه يمنعك أن تُفرغ الخراب من عبرته الأخلاقية؛ ولا يمنعك أن  
تعرف تركيب العين، لكنه يسألك: إلى أين تنظر بها؟

إن كفران البصر أن يرى ولا يعتبر. وقد يكون الإنسان قوي البصر ضعيف  
البصيرة؛ تلتقط عينه أدق الأشكال، لكن قلبه لا يلتقط الدلالة. وهذا من أخطر  
أمراض الحضارات حين تتضخم أدوات الرؤية وتضعف مقاصدها؛ يرى  
الإنسان أبعد المجرات، ثم ينسى قرب الموت؛ يرى أصغر الخلايا، ثم ينسى  
أنه مخلوق؛ يملأ العالم صورًا، ثم يفرغ قلبه من المعنى. وكأن القرآن يقول:  
ليست المشكلة في قلة المرئيات، بل في فساد القراءة. العين التي لا تقود إلى  
التذكر عين ناقصة الوظيفة، ولو كانت سليمةً في الطب.

وأما الأفئدة فهي أعمق هذه الأمانات؛ لأنها موضع المعنى بعد دخوله من السمع والبصر. الفؤاد هو الذي يجمع المسموع والمرئي، ثم يحوله إلى موقف. قد يسمع الإنسان الآية ويرى الآية، لكن الفؤاد إذا كان قاسيًا بقيت الآيات حوله ولم تدخل فيه. ولذلك لا يكفي أن تُفتح الحواس إذا أُغلق الداخل. والفؤاد في القرآن ليس مستودع معلومات، بل مركز حياة ومسؤولية؛ يخاف، يطمع، يحب، يكره، يوقن، يشك، يخشع، يقسو، يزيغ، يطمئن. ومنه تبدأ حركة الجسد في النهاية.

ولهذا كان مشهد قيام الليل في السورة مشهدًا فؤاديًا قبل أن يكون جسديًا. (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) لأن في الداخل خوفًا وطمعًا. لو كان الجسد وحده هو الحاكم ل بقي ملتصقًا بفراشه، لكن الفؤاد الحي يرسل إلى الجسد أمرًا آخر: قم. ليس لأن النوم حرام، ولا لأن الراحة مذمومة، بل لأن هناك لحظة يصبح فيها النداء الداخلي أقوى من ثقل البدن. وهذا النداء لا يصدر من معرفة باردة، بل من فؤادٍ ذاق معنى الآخرة، وعرف أن العمر لا يُستهلك كله في الغفلة.

ومن هنا نفهم أن الفؤاد هو محلّ التحويل. السمع يدخل بالآية، والبصر يدخل بالعبرة، لكن الفؤاد هو الذي يقرر: هل تتحول الآية إلى سجود؟ هل تتحول العبرة إلى توبة؟ هل يتحول الرزق إلى إنفاق؟ هل يتحول الخوف إلى دعاء؟ هل يتحول الطمع في رحمة الله إلى عمل؟ فإذا كان الفؤاد شاكراً جعل كل أداة طريقاً إلى الله، وإذا كان جاحداً جعل كل أداة خادمةً للهوى.

وقوله تعالى: (قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) بعد ذكر هذه الثلاثة يكشف أن الشكر المطلوب ليس شكر اللسان وحده، بل شكر الوظيفة. شكر السمع أن يُفتح

للحق، وشكر البصر أن يُستعمل في الاعتبار، وشكر الفؤاد أن يلين لله ويخضع للوحي. أما أن يقول الإنسان: الحمد لله، ثم يجعل أذنه مرتعاً للباطل، وعينه جسراً إلى الغفلة، وفؤاده مأوى للكبر والحسد والشهوة، فهذا شكرٌ لفظيٌّ يكذّبه اتجاه النعمة.

إن هذه الأمانات الثلاث هي التي تكشف صدق الإيمان الباطن. فالذي يؤمن حقاً لا يبقى سمعه كما كان، ولا بصره كما كان، ولا فؤاده كما كان. الإيمان يعيد ترتيب الحواس؛ يجعل السمع يأنس بالوحي، والبصر يستحي من الحرام، والفؤاد يكره أن يكون بيتاً للغفلة. ومن عجيب الأمر أن القلب إذا صلح غيّر ذوق الحواس، فيصبح ما كان لذيذاً في الغفلة ثقيلاً، وما كان ثقيلاً في الطاعة محبوباً. وقد ينام الإنسان طويلاً فلا يستريح، ويقوم قليلاً في جوف الليل فيجد قرّة لا يعرفها أهل الامتلاء الظاهر.

ولذلك فإن سورة السجدة حين تذكر السمع والأبصار والأفئدة قبل مشهد إنكار البعث، فإنها تشير إلى أن مشكلة المنكرين ليست نقصاً مطلقاً في الأدوات، بل فساداً في استعمالها. لقد أعطوا ما يمكن أن يهديهم، لكنهم لم يشكروا. سمعوا خبر الخلق والبعث، ورأوا آثار القدرة في أنفسهم والآفاق، وكان لهم فؤادٌ يستطيع أن يعقل، ثم قالوا: (أَيُّدَا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ أَيْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ). وهذا السؤال ليس سؤال طالب هداية بريء، بل سؤال من عطل ذاكرة الخلق الأول، ونظر إلى التفرق في الأرض بعينٍ لا ترى قدرة الله.

إن من شكر السمع أن يصدق خبر الله عن الغيب، لا لأن العقل مُلغى، بل لأن العقل السليم يعرف حدود نفسه، ويعرف أن خبر العليم بالغيب والشهادة أعلى من ظنون الحس. ومن شكر البصر أن يرى الخلق الأول دليلاً على الإعادة،

ويرى إحياء الأرض دليلاً على البعث، ويرى الهلاك السابق دليلاً على صدق الوعيد. ومن شكر الفؤاد أن لا يجعل غرابة الغيب سبباً لإنكاره، بل سبباً لتعظيم المخبر به، ما دام المخبر هو الله الحق.

وهنا تتضح علاقة هذا الفصل بعنوان الكتاب كله: هندسة اليقين وتربية الإنسان الساجد. فاليقين لا ينزل على الإنسان ككتلة غامضة، بل يتشكل عبر مداخل: يسمع، يرى، يتفكر، يتذكر، يشكر، يسجد. والسجود لا يأتي من فراغ؛ إنه ثمرة حواسٍ شاكرت، وفؤادٍ صدّق، وجسدٍ قبل أن يكون تابعاً للحق لا للهوى. فإذا رأيت إنساناً يجافي جنبه عن المضجع، فاعلم أن المسألة بدأت قبل ذلك بكثير: بدأت بأذنٍ لم تُعرض، وعينٍ لم تُطفأ، وفؤادٍ لم يمت.

وإذا كانت هذه الأعضاء أماناتٍ في الدنيا، فإنها كذلك شواهد في الآخرة. فالقرآن في مواضع أخرى يبين أن السمع والبصر والفؤاد مسؤولٌ عنها الإنسان، وأن الجوارح تشهد. وهذا المعنى حاضرٌ ضمناً هنا؛ لأن النعمة إذا لم تُشكر صارت حجةً على صاحبها. ما أخطر أن يأتي الإنسان يوم القيامة ومعه أذنٌ سمع بها كل شيءٍ إلا الحق، وعينٌ أبصر بها كل شيءٍ إلا الآيات، وفؤادٌ امتلأ بكل شيءٍ إلا اليقين. عندها لا تكون المشكلة أنه حُرِمَ الأدوات، بل أنه خانها.

ومن هنا ينبغي أن نعيد تعريف الشكر: الشكر ليس انفعالاً عابراً عند تذكّر النعمة، بل نظام حياةٍ يردّ كل نعمةٍ إلى مقصدها. شكر العلم أن يقود إلى خشية، وشكر المال أن يقود إلى إنفاق، وشكر الجسد أن يقود إلى طاعة، وشكر الليل أن يقود إلى مناجاة، وشكر السمع أن يقود إلى اتباع، وشكر

البصر أن يقود إلى اعتبار، وشكر الفؤاد أن يقود إلى إخلاص. وكل نعمة لا تعود إلى الله بشكلٍ من أشكال العبودية، فهي في خطر أن تتحول إلى فتنة.

وهذا المعنى يفسر لماذا جمعت السورة بين قيام الليل والإنفاق: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ... وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. فالشكر ليس في الداخل وحده، ولا في الجسد وحده، ولا في المال وحده، بل في تحويل كل ما أُعطيته الإنسان إلى وجهة الله. سمعك رزق، بصرك رزق، فؤادك رزق، نومك رزق، مالك رزق، وكل رزقٍ له باب شكر يناسبه. ومن لم يعرف أبواب الشكر عاش في نعمٍ كثيرةٍ بروح فقيرة.

ولعل من أشد صور قلة الشكر أن يستعمل الإنسان فؤاده في صناعة الاعتراضات على ربه، بدل أن يستعمله في فهم حكمته. ليس كل سؤال مذمومًا، فالقرآن يربي على السؤال الهادي، لكن هناك سؤالًا يولد من الكبر لا من طلب البيان؛ سؤالًا لا يريد أن يفهم، بل يريد أن يؤجل الانقياد. وهذا ما سنراه في إنكار البعث؛ ليس السؤال: كيف يبعث الله الموتى؟ على سبيل طلب الفهم، بل على سبيل الاستبعاد الجاحد. والفرق بين السؤالين فرقٌ بين فؤادٍ يبحث عن النور وفؤادٍ يحتمي بالظلمة.

إن المؤمن حين يسمع قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ ينبغي أن يقف طويلًا؛ لأن الآية لا تخبره بما يملك، بل بما سيُسأل عنه. أنت لا تملك سمعك ملكًا مطلقًا، بل أُعطيته. ولا تملك بصرك استقلالًا، بل جعل لك. ولا تملك فؤادك لتملأه بما تشاء بلا حساب، بل هو موضع نظرٍ وتكليف. وكل «جعل» في الآية يقابله واجبٌ من الشكر، وكل نعمةٍ فيها تقابلها مسؤولية.

وهكذا يتضح أن هذه الثلاثية ليست تفصيلاً في خلق الإنسان، بل هي معبرٌ إلى بقية السورة. فمن شكر السمع صدّق التنزيل، ومن شكر البصر قرأ آيات الخلق والتاريخ، ومن شكر الفؤاد فهم البعث وخاف الآخرة وطمع في الرحمة. ومن كفر بهذه الأمانات قال: افتراه، وقال: أنذا ضللنا في الأرض، وغفل حتى جاءه الموت، ثم نكس رأسه حين لا ينفع النكس.

إن الفصل الخامس يضعنا أمام لبنةٍ خامسةٍ في معمار السجود: الإنسان لم يُخلق فقط، بل جُهِز للهداية؛ أُعطي سمعاً ليصغي، وأبصاراً ليعتبر، وأفئدةً لتفقه وتلين وتختار، لكن قلة الشكر هي المرض الذي يعطل هذه الأمانات. فإذا أراد أن يكون من أهل السجدة، فليبدأ من هنا: أن يطهر سمعه من الإعراض، وبصره من الغفلة، وفؤاده من الكبر، حتى إذا ذُكّر بآيات الله لم يحتج إلى جدلٍ طويل، بل وجد أعضائه كلها تميل إلى موضعها الصحيح: السجود.

## الفصل السادس

مأزق البعث حين يقيس الإنسان قدرة الله على حدود جسده

قال الله تعالى:

(وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ).

بعد أن ذكرت السورة الإنسان بأصله الأول، وبضعف مبدئه القريب، وبالتسوية ونفخ الروح، وبالسَّمع والأبصار والأفئدة، انتقلت إلى موضع الاعتراض الأكبر: البعث. وليس هذا الانتقال طارئاً، بل هو انتقال مقصود؛ لأن من عرف الخلق الأول حق المعرفة لم يستغرب الخلق الجديد، ومن تأمل بدايته من طينٍ وماءٍ مهينٍ لم يجعل تفرقه في الأرض مانعاً من إعادته، ومن آمن بأن الله هو الذي أحسن كل شيء خلقه، وأنه عالم الغيب والشهادة، لم يقف أمام البعث موقف المستبعد المرتاب.

لكن المكذبين يقولون:

(أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ).

والتعبير بـ(ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ) بالغ العمق؛ فهم لا يتحدثون عن الموت وحده، بل عن التفرّق والذوبان والاختفاء، كأن الجسد إذا تلاشى في التراب، واختلط بعناصر الأرض، وغاب عن عيون الناس، صار خارجاً عن القدرة الإلهية. وهذا هو أصل الخلل: أنهم قاسوا قدرة الله على حدود رؤية الإنسان، وظنوا أن ما ضاع عن حسهم يضيع عن علم الله، وأن ما عجزت الذاكرة البشرية

عن تتبعه يعجز عنه الخالق الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

إن سؤالهم في ظاهره سؤال عن الإمكان: هل يمكن أن نعود خلقًا جديدًا بعد أن نتفرق في الأرض؟ لكنه في باطنه ليس سؤال طالب معرفة، بل سؤال استبعادٍ وجحود. ولهذا لم ترد الآية عليهم بتفصيلٍ طويل في كيفية الإعادة، بل كشفت الجذر الحقيقي للمشكلة: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾. أي إن القضية ليست أن الدليل ناقص، بل أن القلب رافضٌ للقاء. إنهم لا ينكرون البعث لأنه غير مفهوم لهم فحسب، بل لأنهم لا يريدون ما يترتب عليه: الحساب، والوقوف، والمسؤولية، وانكشاف العمل، وسقوط الحرية المنفلتة أمام ميزان الله.

وهذا من أعظم دقة القرآن في تشريح النفس الكافرة؛ فهو لا يقف عند العبارة المنطوقة، بل يذهب إلى العلة الغائرة خلفها. كم من سؤالٍ يبدو فكريًا وهو في حقيقته أخلاقي. وكم من اعتراضٍ يظهر في صورة بحثٍ عقلي وهو في حقيقته هروبٌ من التكليف. فالإنسان قد يقول: كيف يكون البعث؟ وهو يريد في العمق أن يقول: لا أريد أن أبعث. وقد يقول: أين الدليل؟ وهو لا ينقصه الدليل بقدر ما يخاف نتيجة الدليل. وقد يجعل الاستبعاد العقلي ستارًا لرغبةٍ دفينَةٍ في أن تكون الحياة بلا حساب.

إن إنكار البعث ليس تفصيلًا اعتقاديًا معزولًا، بل هو زلزالٌ في معنى الإنسان كله. فإذا لم يكن هناك بعث، صار الموت نهايةً مغلقة، وصار الظلم الذي لم يُقتص منه عبثًا مفتوحًا، وصارت التضحيات الكبرى قابلةً للذوبان في التراب، وصار الفاجر والمؤمن ينتهيان إلى المصير نفسه، وصار السجود

في الليل مجرد تعب زائد، وصار الإنفاق نقصاً بلا تعويضٍ أخروي، وصار الصبر بطولاً بلا موعد. ولذلك ستأتي السورة لاحقاً لتقول: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾، لأن الإيمان بالبعث هو الذي يمنع التسوية الظالمة بين الطريقتين.

والبعث في سورة السجدة ليس فكرةً كلاميةً مجردة، بل مركزُ تربويٍّ يغيّر علاقة الإنسان بجسده. فمن لم يؤمن بالبعث جعل جسده مشروع استهلاك، واستعجل لذاته، واتخذ المضجع والمال والشهوة والجاه غاياتٍ نهائية؛ لأنه لا يرى وراء الجسد إلا التفرق في الأرض. أما المؤمن فيرى الجسد أمانةً ستُعاد، ويرى النوم نعمةً لا يجوز أن تتحول إلى غفلة مطبقة، ويرى المال رزقاً سيُسأل عنه، ويرى السمع والبصر والفؤاد شهوداً محتملةً عليه أو له. فالإيمان بالبعث لا يسكن في التصور وحده، بل يدخل في طريقة النوم والإنفاق والنظر والكلام.

وقولهم: ﴿أَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يكشف أنهم جعلوا الخلق الجديد مستبعداً لأنهم رأوا الجسد بعد موته متغيراً ضائعاً، ونسوا أن الخلق الأول كان أعجب في ميزان العقل من الإعادة. فالذي لم يكن شيئاً ثم كان، كيف يستبعد أن يعاد بعد أن كان؟ والذي بدأ من طينٍ وماءٍ مهين، كيف ينكر أن يبعثه الله إذا صار تراباً؟ إن الإعادة ليست أعظم على الله من البداية، لكن الإنسان إذا فقد ذاكرة النشأة الأولى صار تفرقه في الأرض حجةً عنده على استحالة الرجوع.

ومن هنا جاءت الآيات السابقة عن خلق الإنسان كتمهيدٍ حاسمٍ لهذا الموضع. السورة لم تقل مباشرةً: وقالوا أنذا ضللنا في الأرض، بل سبقت ذلك بقولها: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾، ثم ﴿ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾، ثم

(ثُمَّ سَوَّاهُ). وكأنها تقول: قبل أن تستبعد الخلق الجديد، راجع ملفك الأول. انظر إلى بدايتك، إلى ضعفك، إلى أطوارك، إلى انتقالك من خفاءٍ إلى ظهور، ومن مهانة المبدأ إلى اعتدال الصورة، ومن عدم الإدراك إلى السمع والبصر والفؤاد. فمن فعل ذلك لم يعد البعث غريبًا على القدرة، بل صار إنكاره هو الغريب على العقل.

ومع ذلك، فإن القرآن لا يختزل الإيمان بالبعث في الاستدلال بالخلق الأول فقط، بل يربطه بلقاء الرب: (بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ). وهذا التعبير يجعل المسألة شخصيةً ومصيريةً إلى أبعد حد؛ ليست قضية عودة بيولوجية للجسد، بل لقاءً بالرب. واللقاء هنا هو الذي ترتجف له النفس؛ لأن الإنسان لا يرجع إلى فراغ، ولا إلى محكمةٍ مجهولة، بل إلى ربه الذي خلقه وسواه ورزقه وأمهله وأنذره. ولذلك كان كفرهم باللقاء هو أصل كفرهم بالخلق الجديد. إنهم لا يريدون رجوعًا يضعهم أمام من يعرف سرهم وعلنهم، وغيبيهم وشهادتهم، وما أخفوه وما أظهره.

إن كلمة (رَبِّهِمْ) هنا بالذات مؤثرة؛ لم يقل: بل هم باللقاء كافرون فقط، بل (بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ). فالذي ينكرون لقاءه ليس غريبًا عنهم، بل ربهم؛ الذي خلقهم، ودبر أمرهم، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة. وهذا يزيد الجحود قبحًا؛ لأنهم لا ينكرون لقاء قوةٍ بعيدةٍ لا صلة لها بهم، بل ينكرون الرجوع إلى من قامت به حياتهم كلها. إنهم يعيشون بربوبيته ثم يكفرون بلقائه، ينتفعون برزقه ثم يهربون من حسابه، يستعملون أعضائه الموهوبة لهم ثم يجادلون في يوم الرجوع إليه.

وهنا تتجلى خطورة الغفلة عن الآخرة: أنها لا تلغي المستقبل فقط، بل تفسد الحاضر. فالذي لا ينتظر لقاء ربه سيعيد تعريف كل شيء وفق أفقٍ قصير: النجاح ما كسبه الآن، واللذة ما أدركه الآن، والخسارة ما فاتته الآن، والوقت ما يملكه الآن. أما المؤمن بلقاء الله فيعيش الحاضر وهو مفتوحٌ على الأبد؛ يرى في اللحظة الصغيرة أثرًا ممتدًا، وفي العمل الخفي وعدًا مخبوءًا، وفي ترك المضجع قرة عينٍ لا تعلمها نفس، وفي الصبر إمامةً، وفي السجود نجاهً من نكس الرأس يوم القيامة.

وإن شئنا أن نقرأ الآية قراءةً أعمق في بنية النفس، قلنا: إن المكذب بالبعث لا يعاني من مشكلة في تصور قدرة الله فحسب، بل من مشكلة في قبول أن يكون للوجود خاتمةٌ أخلاقية. البعث يعني أن العالم ليس مسرحًا مفتوحًا للفعل بلا نتيجة، وأن التاريخ لا ينتهي عند انتصار الأقوى، وأن المظلوم الذي لم يجد حقه في الدنيا ليس منسيًا، وأن الطائع الذي أخفى عمله عن الناس ليس ضائعًا، وأن الفاسق الذي أفلت من العقوبة الظاهرة لم يفلت من علم الله. ولذلك يكون كفر الإنسان بالبعث في حقيقته رغبةً في كونٍ بلا عدالةٍ نهائية.

لكن سورة السجدة لا تقبل هذا العبث؛ فهي سورة تردّ الوجود إلى تدبير الله، والإنسان إلى خلق الله، والمصير إلى لقاء الله. لذلك لا تترك الاعتراض في صيغته الفكرية، بل تسميه باسمه: ﴿كَافِرُونَ﴾. فالمسألة ليست وجهة نظر محايدة، بل كفرٌ بلقاء الرب، لأن دلائل الخلق والوحي والتدبير قائمة، ومع ذلك يختار الإنسان أن يخلق عينيه عن النهاية.

إن السؤال: ﴿أَيُّدَا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ يحمل أيضًا صورةً بليغةً عن مصير الجسد إذا انفصل عن الروح والحياة؛ جسدٌ كان يتحرك، ويتكلم، ويشتهي،

وينازع، ويتزين، ويتكبر، ثم يصير مختلطاً بالأرض. هذه الصورة وحدها كافية لكسر غرور الجسد؛ فكيف يجعل الإنسان جسداً هذه نهايته إلهاً صغيراً يطيعه في كل شهوة؟ كيف يبيع لقاء ربه لأجل بدنٍ سيضل في الأرض؟ كيف ينام عن نداء الآخرة لأجل جنبٍ سيأكله التراب؟ ليس المقصود احتقار الجسد، فهو خلق الله وأمانته، ولكن المقصود ألا يتحول إلى سيدٍ يحجب صاحبه عن المصير.

ومن هنا يظهر سرّ عظمة قوله تعالى لاحقاً: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾. فالمؤمن فهم ما لم يفهمه المنكر؛ فهم أن الجنب الذي يلتصق بالمضجع سيضجع يوماً في القبر، وأن الراحة التي لا تتصل بالله قد تتحول إلى غفلة، وأن الجسم الذي يطلب النوم يجب أن يتعلم القيام قبل أن يأتي زمن لا قيام فيه للعمل. لذلك لا يقسو المؤمن على بدنه قسوةً جاهلة، لكنه لا يجعله حاكماً مطلقاً. يمنحه حقه، ثم يأخذه إلى حق الله.

والآية تكشف أيضاً حدود الحسّ البشري. فالمكذبون يستدلون بما يرونه: الجسد يضيع في الأرض. لكن القرآن يرددهم إلى ما لا يرونه: لقاء الرب. وهذا هو الامتحان الحقيقي في الغيب؛ أن لا تجعل المرئي يلغي المخبر به من الله. نعم، ترى الجسد يتفرق، لكنك لا ترى علم الله المحيط بكل ذرة. ترى القبر، لكنك لا ترى ما وراء البرزخ. ترى التراب، لكنك لا ترى وعد الله. فإذا جعلت المرئي وحده معيار الحقيقة فقد سجنك نفسك في أضيق غرف الوجود.

ولذلك كانت السورة قد ختمت وحدة الخلق والتدبير بقوله: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾. فالذي يخبرك بالخلق الجديد ليس جاهلاً بما يضيع في الأرض،

بل هو عالم الغيب والشهادة. وما تسميه أنت ضياعًا ليس ضياعًا في علمه. وما يغيب عن خرائط البشر لا يغيب عن إحاطته. وما يتفرق في طبقات الأرض والبحار والهواء لا يخرج عن ملكه. فمأزق المكذبين أنهم جعلوا الأرض أكبر من علم الله في تصورهم، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

إن المؤمن حين يقرأ هذه الآية ينبغي أن يحذر من صورة خفية من صور إنكار البعث، لا باللسان، بل بالسلوك. فقد يقرّ الإنسان بالآخرة عقيدةً، لكنه يعيش كما لو كان لا يلقي ربه؛ ينام نوم الغافلين، ويكسب كسب الناسين، وينفق عمره كأنه غير راجع، ويستعمل سمعه وبصره وفؤاده كأنها ليست أماناتٍ محسوبة. وهذا لونٌ من ضعف اليقين العملي، وإن لم يكن كفرًا باللفظ. فسورة السجدة لا تريد منا أن نثبت البعث في الذهن فقط، بل أن نجعله حاضرًا في هيئة الجسد عند المضجع، وفي حركة اليد عند الرزق، وفي خشوع القلب عند التذكير.

ومن دقائق التربية القرآنية أن البعث لا يُذكر هنا بوصفه حدثًا بعيدًا فقط، بل بوصفه لقاءً: ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾. واللقاء يوقظ في النفس معنى المواجهة؛ ستواجه الحقيقة التي تهرب منها، والرب الذي خلّك، والعمل الذي أخفيته، والعمر الذي أنفقتة، والنعم التي لم تشكرها. وما أشد الفرق بين من يستعد للقاء حبيبٍ يرجوه ويخاف مقامه، ومن يُساق إلى لقاءٍ كان ينكره. الأول يقوم في الليل خوفًا وطمعًا، والثاني ينكس رأسه ويقول: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾، ولكن بعد فوات موضع العمل.

إن كفرهم بلقاء الرب يفسر لنا لماذا لم تتفعهم دلائل الخلق. فالدليل لا يعمل في قلبٍ قرر سلفًا ألا يصل إلى النتيجة. إنسانٌ يريد ألا يكون مسؤولًا سيجد

دائمًا حيلةً فكريةً تؤجل استسلامه. مرةً يقول: افتراه، ومرةً يقول: أنذا ضللنا في الأرض، ومرةً يقول: متى هذا الفتح؟ تتغير العبارات، لكن الجذر واحد: الهروب من سلطان الحق. ولهذا كانت السورة تكشف هذه الحيل واحدةً بعد أخرى، ثم تبني في مقابلها صورة المؤمن الذي لا يستكبر.

ولعل من أبداع ما في الآية أنها تربط بين البعث والربوبية لا بين البعث والقدرة وحدها. فالله قادرٌ على الإعادة، نعم، لكن كونه ربًّا يجعل الإعادة منسجمةً مع معنى التربية والتكليف والجزاء. الرب لم يخلقك عبثًا، ولم يعطك السمع والبصر والفؤاد سدى، ولم يرسل الوحي لعبًا، ولم يجعل التاريخ بلا عاقبة، ولم يفتح باب التوبة بلا موعد. فاللقاء مقتضى الربوبية الحكيمة؛ لأن الرب الذي خلق وهدى وأنذر لا يترك الإنسان يذوب في الأرض كأن شيئًا لم يكن.

وهذا يردّ على التصور العدمي للحياة. فالعدم يريد أن يقول للإنسان: عش ما استطعت، ثم ستضيع. أما الوحي فيقول: عشت لأن الله خلقك، وسترجع لأن الله ربك. بين الجملتين فرقٌ في بناء الوعي كله. الأولى تفتح باب العبث المقنع بالحرية، والثانية تفتح باب المسؤولية المضيئة بالمعنى. الأولى تجعل الموت نهاية القيمة، والثانية تجعل الموت بوابة الحساب. الأولى تجعل الجسد سيدًا مؤقتًا، والثانية تجعله أمانةً عائدةً إلى مالكها.

ومن هنا فإن الآية لا تناقش البعث بوصفه مسألةً غيبيةً فحسب، بل بوصفه أساسًا للإنسانية الأخلاقية. لا يمكن أن يستقيم معنى العدل الكامل بلا بعث، ولا معنى الصبر العميق بلا بعث، ولا معنى التضحية الخفية بلا بعث، ولا معنى قيام الليل حين لا يراك أحد بلا بعث. فكل عملٍ لا يأخذ مكافأته في

الدنيا، وكل ألم لا يجد تفسيره الكامل هنا، وكل دمة لم يرها الناس، وكل سجدة في الظلام، كل ذلك ينتظر عالمًا لا تضيع فيه الذرات. وهذا هو معنى اللقاء: أن كل شيء يعود إلى الله، فلا يبقى شيء بلا وزن.

وهكذا تضعنا سورة السجدة أمام مفارقة عجيبة: المكذبون يقولون: إذا ضللنا في الأرض، والمؤمنون تجافي جنوبهم عن المضاجع. هؤلاء أسرى صورة الجسد بعد الموت، وأولئك أحرار من سلطان الجسد قبل الموت. هؤلاء جعلوا تفرق البدن حجة على إنكار الرجوع، وأولئك جعلوا مصير البدن دافعًا إلى القيام. هؤلاء نسوا لقاء الرب، وأولئك دعوا ربهم خوفًا وطمعًا. فالإيمان بالبعث ليس فرقًا في الجواب النظري فقط، بل فرق في هيئة الحياة.

وفي نهاية هذا الفصل تتكون اللبنة السادسة من معمار السورة: الإنسان الذي عرف مصدر الوحي، وأدرك خلق السماوات والأرض، وتذكر أصله من طينٍ وماءٍ مهين، وفهم أمانة السمع والبصر والفؤاد، يجب أن لا يقع في مأزق الذين قاسوا قدرة الله على مصير الجسد في التراب، وأن لا ينسى أن القضية الكبرى ليست تفرق الأعضاء في الأرض، بل لقاء الرب. فإذا استقر الإيمان باللقاء، صار الموت طريقًا لا نهاية، وصار الجسد أمانة لا إلهاء، وصار الليل ميدانًا لا غفلة، وصار السجود تدريبًا مبكرًا على الوقوف بين يدي الله قبل أن يأتي يوم تنكسر فيه الرؤوس ولا ينفعها الانكسار.

## الفصل السابع

### ملك الموت والحقيقة التي لا يستطيع الإنسان إلغاءها

قال الله تعالى:

(قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ).

بعد أن عرضت السورة إنكار المكذبين للبعث، وكشفت أن أصل مشكلتهم هو الكفر بلقاء الرب، جاء الجواب القرآني لا في صورة جدلٍ طويلٍ حول احتمالات الفلسفة، بل في صورة حقيقة لا يستطيع أحد أن يخرج من سلطانها: الموت. فالذي يجادل في الخلق الجديد، ويستبعد الرجوع بعد التفرق في الأرض، ويهرب من لقاء ربه بحيلة السؤال، يردّه القرآن إلى الباب الذي سيدخله شاء أم أبى: (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ).

إن الموت هنا ليس فكرةً حزينةً في هامش الحياة، بل حجةً مركزيةً في قلب السورة. فمن أراد أن ينكر الرجوع فليبدأ أولاً من الحقيقة التي لا يستطيع دفعها: أنه سيموت. ومن أراد أن يجعل الدنيا أفقه النهائي فليتأمل أن هذا الأفق سينغلق عليه في لحظة لا يملك تأخيرها. ومن أراد أن يستهلك جسده في الغفلة فليعلم أن هذا الجسد نفسه سيُنزع من ألفته، وسيغادر موضع اختياره، وسيصير إلى مصير لا تصنعه رغباته.

وقوله: (يَتَوَفَّاكُم) أدق من مجرد «يميتكم»؛ لأن التوفي يدل على الأخذ التام والاستيفاء. فالموت في القرآن ليس تلاشيًا فوضويًا، ولا سقوطًا في العدم، بل

توفّي؛ انتقالٌ من قبضة الحياة الدنيا إلى مرحلةٍ أخرى بأمر الله. وما دام توفياً، فهو ليس عبثاً. وما دام له ملكٌ موكلٌ، فهو ليس حادثَةً سائبة. وما دام بعده رجوعٌ إلى الرب، فهو ليس نهاية القصة.

ثم قال: ﴿مَلَكُ الْمَوْتِ﴾. وهنا يدخل الغيب في مواجهة الحسّ. الإنسان يرى آثار الموت: سكون الجسد، انقطاع النفس، برودة الأطراف، الفراق، القبر؛ لكنه لا يرى حقيقة التوفي كما أخبر الله بها، ولا يرى الملك الموكل. والسورة، لأنها سورة يقين، تعلّم الإنسان أن ما لا يراه ليس عدماً، وأن الغيب الذي يخبر به الله أصدق من المشهد الذي تقف عنده العين. فالموت ليس ما تراه العين وحدها، بل ما يخبر به الوحي أيضاً. ومن جعل العين وحدها شاهدةً على الموت فقد رأى القشرة وترك الحقيقة.

والإيمان بملك الموت يعيد إلى الموت هيئته المعرفية. فالموت ليس خللاً بيولوجياً فحسب، وإن كانت له أسبابه الظاهرة، بل وراء الأسباب أمرٌ وتوكيلٌ وغيب. وهذا لا يلغي الطب ولا السنن ولا الأسباب، لكنه يمنع الإنسان من أن يحبس الموت في تفسيرٍ ماديّ ضيق. قد يقول الطبيب: مات بكذا، ويكون قوله صحيحاً في مستوى السبب الظاهر، لكن القرآن يفتح مستوى أعلى: ﴿يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾. فالسبب لا يلغي الأمر، والظاهر لا ينفي الغيب، والمعرفة الجزئية لا تسقط الحقيقة الكبرى.

وقوله: ﴿الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ يخلع على الموت معنى الدقة والتعيين. ليس الموت قوة عمياء تضرب حيث شاءت بلا علم، بل هناك توكيل. وكل نفس لها أجلها، وكل حياة لها موعدها، وكل إنسان يسير — وهو يضحك ويغضب وينام ويخطط — نحو لحظةٍ موكلةٍ لا يخطئها. وفي هذا ما يوقظ القلب من وهم

السيطرة؛ فالإنسان يملك أن يرتب أشياء كثيرة، لكنه لا يملك أن يلغي الموعد الذي وُكِّلَ به ملك الموت.

ومن دقائق قوله: ﴿بِكُمْ﴾ أنه يجعل الخطاب مباشرًا، لا يتحدث عن الموتى الغائبين فقط، بل عنكم أنتم. فالإنسان بارعٌ في تحويل الموت إلى خبرٍ عن الآخرين؛ يسمع أن فلانًا مات، وأن قومًا هلكوا، وأن جنازةً مرت، فيحزن قليلاً ثم يعود إلى وهم الاستثناء، كأن الموت قاعدةٌ على الناس لا عليه. لكن القرآن يقطع هذه الحيلة: ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾. أنتم داخل الخطاب، داخل الموعد، داخل الحقيقة. لستم مشاهدين للموت من الخارج، بل أنتم موعودون به من الداخل.

ثم تأتي الجملة الحاسمة:

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

هنا يكتمل معنى الموت. ليس توفياً فقط، بل رجوع. وليس رجوعاً إلى مجهول، بل إلى ربكم. وهذا يردّ على الذين قالوا: ﴿أَيُّدَا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ فأنتم لا تضيعون في الحقيقة، بل تُتوفون ثم تُرجعون. قد يضل الجسد في الأرض في نظر البشر، لكن النفس ليست ضائعةً في علم الله، والمصير ليس متروكاً للتربة، والنهاية ليست للتراب، بل للرب. وما ظننتموه ضياعاً هو في ميزان الوحي مرحلةٌ داخل طريق الرجوع.

والرجوع إلى الرب هو الحقيقة التي تهدم كل تصورات الاستقلال. فالإنسان قد يخرج في الدنيا من بيتٍ إلى بيت، ومن بلدٍ إلى بلد، ومن عملٍ إلى عمل، لكنه في النهاية لا يخرج إلا ليرجع إلى الله. كل الطرق تنتهي هناك، وكل الأعمار تصب في تلك اللحظة، وكل الأجساد التي بدت مالكةً لحركتها ستنقاد

إلى مصيرها. ومن فهم هذا لم يعد يسأل: كيف أعيش أطول فقط؟ بل يسأل: كيف أرجع أنقى؟ كيف ألقى ربي بقلب لم يستهلكه الكبر، وبسمع لم يعرض عن الآية، وببصر لم يخن الأمانة، وبجنب عرف أن يقوم حين يدعو اليقين؟

إن الموت في سورة السجدة ليس قاطعاً للمعنى، بل كاشفٌ له. فالذي عاش بلا إيمان بالرجوع سيرى الموت كارثةً نهائيةً، أو يحاول طرده من وعيه بالانشغال والضجيج. أما المؤمن فيراه انتقالاً مهيباً، يخافه ولا ينكره، يستعد له ولا يعبده، يتذكره لا ليكره الحياة، بل ليضع الحياة في موضعها الصحيح. فليس المطلوب أن يتحول ذكر الموت إلى يأس، بل إلى ترتيب. الموت لا يقول لك: اترك العمل، بل يقول: لا تعمل كأنك مقيم. لا يقول: احتقر الجسد، بل يقول: لا تجعله سيدك. لا يقول: اهرب من الدنيا، بل يقول: لا تنس أنها طريق.

وفي الآية أيضاً تربيةً على واقعية الإيمان. فالقرآن لا يترك الإنسان في فضاءاتٍ مجردة، بل يضعه أمام أمرٍ يراه كل يوم. فإذا كان يشك في البعث لأنه غيبٌ مستقبلي، فليتأمل الموت لأنه غيبٌ يقتحم الشهادة. كل ميتٍ كان قبل لحظاتٍ يتكلم ويتحرك، ثم دخل في طورٍ لا تستطيع الحواس أن تلاحقه. أليست هذه وحدها آيةٌ على أن الإنسان ليس ما تراه العين فقط؟ أليس انتقال الحياة من الجسد دليلاً على أن في الإنسان سرّاً لا يمسكه التشريح وحده؟ أليس عجز البشر أمام لحظة الموت كافياً لتواضع العقل أمام خبر الوحي؟

ومع ذلك، فإن السورة لا تجعل الموت نهاية التأمل، بل تجعله جسراً إلى الرجوع. فالخطر أن يتذكر الإنسان الموت ولا يتذكر ما بعده؛ فيصير ذكر الموت عنده كآبة لا هداية، أو فلسفةً وجوديةً لا إيمان. أما القرآن فيربط

الموت بالرب: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾. فليست القضية أنك ستفقد الدنيا فقط، بل أنك ستلقى ربك. وليست المأساة أن تنتهي الذات، بل أن تُسأل عنها. وليست العبرة أن الجسد يسكن، بل أن العمل يبدأ في الانكشاف.

وهنا تشتد علاقة هذه الآية بمشهد المجرمين الذي يليها: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. فالرجوع ليس فكرة مطلقة؛ له مشهدٌ وهيئةٌ وموقف. من لم يستعد للرجوع رجع ناكس الرأس. ومن لم يسمع في الدنيا قال هناك: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾. ومن لم يؤمن بالغيب قبل انكشافه طلب العودة بعد فواتها. وهكذا تكون آية ملك الموت بوابةً بين إنكار البعث ومشهد الندم.

ولعل من أعمق ما في هذه الآية أنها تصحح معنى الفاعلية البشرية. الإنسان في حياته يفعل: يختار، يخطط، يبني، يهدم، يطيع، يعصي؛ لكنه عند الموت يكون مفعولاً به: ﴿يَتَوَفَّاكُم﴾. هذه النقلة من الفاعل إلى المفعول كافيةٌ لكسر طغيان النفس. أنت تتحرك ما دامت المهلة باقية، فإذا جاء الموعد لم تعد صاحب القرار. ولهذا فالعاقل هو من يستعمل زمن الفعل قبل أن يدخل زمن الانفعال؛ يعمل قبل أن يُتوفى، ويسجد قبل أن يُرجع، ويتوب قبل أن ينكس رأسه، ويجافي جنبه قبل أن يوضع جنبه في القبر.

إن قوله: ﴿الَّذِي يُكَلِّمُكُم بِكُم﴾ يحمل أيضاً معنى الملازمة الخفية. ملك الموت ليس بعيداً عن نظام حياتك كما تتوهم، بل هو موكل بك، حاضرٌ في قدرك بأمر الله، ينتظر الموعد الذي لا تعلمه. وهذه الحقيقة لا يراد بها أن يعيش الإنسان مرعوباً رعباً يشلّه، بل يقظاً يقظةً تضبطه. الخوف القرآني خوفٌ عامل، لا خوفٌ مدمر؛ خوفٌ يدفع إلى الدعاء والعمل والإنفاق وقيام الليل،

لا إلى الانهيار. ولذلك سيصف المؤمنين بقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾. فالخوف الصحيح لا يفصل عن الطمع في رحمة الله، ولا يتحول إلى قنوط.

والآية كذلك تهدم وهم التأجيل. كم من إنسانٍ لا ينكر الموت نظريًا، لكنه يؤجله نفسيًا؛ يعرف أنه سيموت، لكنه يعيش وكأن الموت لن يأتي إلا بعد أن يفرغ من شهواته ومشاريعه ومخاصماته وغفلته. وهذا نوعٌ دقيقٌ من خداع النفس. القرآن لا يسمح بهذا التأجيل البارد؛ يقول: ﴿يَتَوَفَّاكُم﴾ بالفعل المضارع الذي يشعر بتحقيق السنة واستمرارها، وكأن الموت ليس خبرًا مؤجلًا في آخر الطريق، بل حقيقةً سائرةً معك في كل لحظة. كل يومٍ ينقص من المسافة، وكل نومٍ صغيرٍ يذكرّك بالنوم الأكبر، وكل فراقٍ حولك رسالةً إلى فراقك.

ومن هنا نفهم لماذا كان قيام الليل من أعظم علامات اليقين في السورة. فالليل يشبه الموت من وجهٍ ما؛ سكون، وانقطاع، وغيابٌ عن الحركة، وتسليمٌ للجسد. فإذا قام المؤمن في الليل فقد قاوم صورةً من صور الغفلة، وتذكر الرجوع في وقتٍ يستسلم فيه الناس للنسيان. كأن قيامه يقول: يا رب، قبل أن أتوفى التوفي الأكبر، أريد أن أستيقظ من موت الغفلة؛ وقبل أن أرجع إليك قهراً، أرجع إليك طوعاً في سجدةٍ خفية؛ وقبل أن ينقطع عملي، أفتح في الليل عملاً لا يراه إلا أنت.

إن ملك الموت في الوعي القرآني ليس شخصيةً للتهويل الأدبي، بل حقيقةٌ غيبيةٌ تعيد ترتيب الحياة. فإذا كان موگلاً بنا، فليست أعمارنا ملكاً خالصاً لنا. وإذا كنا نُتوفى، فليست أجسادنا أبدية. وإذا كنا نُرجع إلى ربنا، فليست قراراتنا بلا حساب. هذه الثلاثية: التوفى، والتوكيل، والرجوع؛ تبني في الإنسان وعياً لا يستطيع معه أن يعيش عابثاً إلا إذا كابر نفسه.

ومن العجيب أن الإنسان يخاف من فقدان أشياء صغيرة، ولا يخاف بما يكفي من فقدان المهلة. يخاف أن يخسر مالا، أو مكانة، أو علاقة، أو فرصة دنيوية، لكنه يؤجل التفكير في اللحظة التي يخسر فيها القدرة على العمل كله. وسورة السجدة تقلب الميزان: الخسارة الكبرى ليست أن يفوتك شيء من الدنيا، بل أن تُتوفى وأنت كافرٌ بلقاء ربك، أو غافلٌ عن آياته، أو مستكبرٌ عن سجوده، أو قليل الشكر لنعمائه.

وهنا تظهر رحمة الآية رغم جلالها. فهي تخبرك بالموت قبل الموت، وتحدثك عن الرجوع قبل الرجوع، وتكشف لك حقيقة التوفي وأنت لا تزال قادرًا على العمل. أي رحمة أعظم من أن يُخبر الإنسان بنهاية الطريق قبل أن يصل إليها؟ وأي إنذارٍ أصدق من أن يقال له: هناك ملكٌ موكل، وهناك توفٍ، وهناك رجوع؟ إن الغافل يرى في هذا تخويفًا، أما المؤمن فيراه إنقاذًا؛ لأن الذي يخبرك بما ينتظرك يمنحك فرصة أن تستعد.

ومن هنا تتكون اللبنة السابعة في معمار الإنسان الساجد: بعد أن واجهت السورة إنكار البعث، وضعت الإنسان أمام الموت بوصفه حقيقةً غيبيةً مشهودة الأثر، لا يستطيع دفعها ولا تفسيرها تفسيرًا يلغي سلطان الله. فليست النهاية أن تضل الأجساد في الأرض، بل أن يتوفى ملك الموت النفوس بأمر الله، ثم يكون الرجوع إلى الرب. ومن أدرك هذا لم يعد الموت عنده خبرًا مؤجلًا، بل صار مربيا صامتًا، يوقظه من غرور الجسد، ويمنعه من الاسترخاء الكامل للمضجع، ويدفعه إلى أن يجعل كل يوم خطوة واعية نحو لقاء لا بد منه.

## الفصل الثامن

**المجرمون ناكسو الرؤوس: حين ينكسر الكبر متأخرًا**

قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٠١﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

هنا تنقلنا السورة من تقرير الموت والرجوع إلى تصوير هيئة الراجعين الذين لم يستعدوا. لم تعد المسألة نقاشًا حول إمكان الخلق الجديد، ولا سؤالًا عن الجسد إذا ضل في الأرض، بل مشهد قائم كأنه حاضر أمام العين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾. وهذا الأسلوب القرآني يفتح للمخاطب نافذة على الغيب، لا ليُشبع الخيال، بل ليوظ الضمير قبل أن يصير المشهد واقعًا لا رجعة منه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

إنها صورة قليلة الكلمات، واسعة الهول. رؤوس كانت في الدنيا مرفوعةً بالكبر، ناكسة الآن. أعناق لم تتحن للحق حين جاءها، انحنت اضطرارًا عند انكشافه. وجبأة لم تعرف السجود الاختياري، وجدت نفسها في هيئة الانكسار القهري. وليس كل انخفاض نجاة؛ فهناك انخفاض يرفع صاحبه لأنه كان لله وفي زمن العمل، وهناك انخفاض يفضح صاحبه لأنه جاء بعد انتهاء المهلة.

وسورة السجدة كلها قائمة على هذا الفرق: اسجد الآن طوعاً، قبل أن تتكس رأسك قهراً.

ولفظ ﴿نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ﴾ لا يصف حركةً جسديةً فقط، بل يلخص انهيار موقفٍ كامل. الرأس موضع الرفعة الظاهرة، وموضع النظر، وموضع الخطاب، وموضع الكبرياء إذا فسد القلب. فإذا نُكس الرأس، فقد نُكس معه كل ما كان يتكى عليه صاحبه من دعوى وقوة واعتداد. في الدنيا كانوا يسألون: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾، أما الآن فلا يسألون استبعاداً، بل يطلبون رجعة. في الدنيا كانوا يقولون أو يقول أمثالهم: افتراه، أما الآن فيقولون: أبصرنا وسمعنا. في الدنيا كان السمع والبصر والفؤاد أماناتٍ قليلة الشكر، أما الآن فقد استيقظ السمع والبصر بعد فوات زمان الشكر.

وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يزيد المشهد رهبةً. ليسوا ناكسي الرؤوس أمام قوةٍ مجهولة، بل عند ربهم؛ الرب الذي خلقهم من طين، وجعل نسلهم من ماءٍ مهين، وسواهم، ونفخ فيهم من روحه، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وأنزل الكتاب، وأرسل النذير، وفتح باب الهداية، ثم أمهلهم. فالتكس هنا ليس أمام خصم، بل أمام ربٍ أحسن إليهم فكفروا، وأنذرهم فأعرضوا، وذكرهم فاستكبروا.

ثم يأتي اعترافهم:

﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾.

يا لها من جملةٍ موجعة. في الدنيا قال الله: ﴿وَجَعَلْ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، وهنا يقولون: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾. كأن السورة

تربط بين النعمة المعطاة في الدنيا والاعتراف المتأخر في الآخرة. لقد كان لهم سمعٌ وبصر، لكنهم لم يستعملوهم في موضع النجاة؛ فلما انكشف الغيب صار السمع والبصر كاملين من حيث الإدراك، عاطلين من حيث النفع. وهذه من أعظم مآسي الإنسان: أن يعرف الحق حين لا تنفع المعرفة، وأن يوقن حين لا يفتح اليقين باب العمل، وأن يبصر بعد أن كان مطلوباً منه أن يؤمن بالغيب.

والترتيب هنا جاء: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾، مع أن الآية السابقة في الخلق قالت: السمع والأبصار. ولعل في هذا سرّاً دقيقاً؛ ففي الدنيا كان طريق الهداية يبدأ غالباً بالسمع: سماع الوحي والإنذار والتذكير. أما في الآخرة فقد صار الغيب مشاهداً، فبدأوا بالأبصار؛ رأوا ما كانوا يكذبون به، ثم سمعوا ما لا يستطيعون دفعه. لكن الإبصار بعد انكشاف الغيب لا يساوي الإيمان قبل انكشافه؛ لأن الامتحان كان في التصديق والعمل زمن الحجاب، لا في الاعتراف عند سقوط الحجاب.

ثم قالوا:

﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

هذه الجملة تكشف حقيقة الدنيا كلها: أنها دار عمل. حين انتهت، لم يطلبوا مالاً، ولا عمراً للمتعة، ولا سلطاناً، ولا جاهاً، بل طلبوا الرجوع للعمل الصالح. كأن كل ما كان يملأ الدنيا في أعينهم سقط في لحظة، ولم يبقَ إلا السؤال الأعظم: هل يمكن أن نعود لنعمل؟ لكن الجواب في بنية المشهد واضح: لا رجوع. فالآخرة ليست امتداداً مفتوحاً للتجربة، بل موضع الجزاء

بعد اكتمال الحجة. ومن لم يعمل حين كان العمل ممكناً، لن ينفعه أن يطلب العمل حين صار العمل ممتنعاً.

وقولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ يضع اليد على المفارقة المريرة. اليقين الذي كان مطلوباً منهم في الدنيا جاء الآن، لكنه جاء متأخراً. كانوا مأمورين أن يوقنوا بآيات الله قبل أن يروا كل شيء عياناً، وأن يعملوا بمقتضى الوحي قبل أن يتحول الغيب إلى مشاهدة، وأن يجافي أحدهم جنبه عن المضجع لأنه يؤمن بما لم يره، لا لأنه رأى النار والجنة والحساب رأي العين. أما اليقين بعد المعاينة فليس بطول إيمانية، بل نتيجة قهرية لانكشاف الحقيقة.

وهذا يعلم المؤمن أن قيمة الإيمان في كونه استجابةً للوحي قبل فوات المهلة. ليس الإيمان أن تقول يوم القيامة: أبصرت وسمعت، بل أن تسمع اليوم فتسجد، وأن تبصر الآيات اليوم فتعتبر، وأن يلين فؤادك اليوم قبل أن ينكسر رأسك غداً. فالمسافة بين المؤمن والمجرم ليست أن أحدهما سيعرف والآخر لن يعرف؛ كلاهما سيعرف، لكن المؤمن عرف في الزمن النافع، والمجرم عرف في الزمن الفاضح.

ثم قال تعالى:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

هذه الآية تردّ الإنسان إلى سلطان المشيئة الإلهية، وتبين أن الهداية ليست شيئاً خارج ملك الله، لكنه سبحانه اقتضت حكمته أن تكون الدنيا دار ابتلاء واختيار ومسؤولية، لا دار إكراه يلغي معنى العمل. ولو شاء الله لهدى الناس

كلهم هدايةً قهريةً لا يبقى معها امتحان، لكنه شاء بحكمته أن يبتليهم بالوحي والعقل والفطرة والآيات والنذر، فمن استجاب فلنفسه، ومن كابر فعليها. وهذا الباب دقيقٌ يجب أن يُمسك بتوازن القرآن: مشيئة الله شاملة، وعدله كامل، وحكمته بالغة، والعبد مسؤولٌ عن اختياره وكسبه، ولا يظلم ربك أحدًا.

والآية لا تُقال لتسويغ الكفر، بل لتقرير أن ما وقع لم يقع خارج سلطان الله، وأن امتلاء جهنم ممن استحقها ليس فشلًا في التدبير، بل تحققٌ للوعيد في حق من قامت عليهم الحجة فأعرضوا. فالله لم يعجز عن هدايتهم، لكنهم لم يكونوا مظلومين حين عوقبوا. وقد أعطاهم السمع والأبصار والأفئدة، وأنزل الكتاب، وأرسل النذير، وذكرهم بالخلق والموت والرجوع، ثم اختاروا النسيان والكفر بلقاء الرب.

ثم يأتي خطاب العذاب:

(فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا).

والذوق هنا ليس معرفةً نظريةً، بل مباشرةً للعذاب. كانوا في الدنيا يتعاملون مع الآخرة كخبرٍ يمكن تأجيله أو إنكاره، أما الآن فقد صار الخبر ذوقًا، وصارت الحقيقة تجربةً لا مهرب منها. وقوله: (بِمَا نَسِيتُمْ) يكشف أن النسيان ليس دائمًا عذرًا، بل قد يكون جريمةً حين يكون نسيان إعراضٍ لا نسيان عجز؛ نسيانًا صنعه الهوى، وغداه الكبر، وثبته طول الأمل. لقد نسوا لقاء يومهم هذا، أي عاشوا كأن هذا اليوم ليس في الطريق، مع أنه كان آتيًا لا محالة.

والتعبير بـ(لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) شديد الإحكام؛ فالذي كفروا به صار يومهم، حاضراً مشاراً إليه: هذا. ما كان غيباً مؤجلاً صار مشهداً قائماً. وما كان موضع جدل صار موضع ذوق. وما كان يقال لهم عنه في الدنيا صار الآن محيطاً بهم. وهذه هي خطورة تأجيل الحقائق الكبرى؛ قد تظل مؤجلة في شعورك زمناً طويلاً، لكنها لا تفقد موعدها لأنك نسيتها. اليوم الذي تنساه لا ينساك.

ثم قال:

(إِنَّا نَسِينَاكُمْ).

وهذا من أعظم مواضع الرهبة، ويجب فهمه بما يليق بجلال الله وتنزيهه؛ فليس المراد نسيان غفلة أو ذهول، تعالى الله عن ذلك، وإنما المراد الترك والإهمال في العذاب، والمجازاة من جنس عملهم؛ لما نسوا لقاء يومهم، تركوا في العذاب بلا رحمة تنقذهم منه. فالله سبحانه لا ينسى بمعنى الغفلة، وهو بكل شيء عليم، لكن التعبير يأتي على وجه المقابلة والجزاء: نسيتم، فذوقوا أثر نسيانكم.

وهذه الجملة وحدها كافية لأن يرتجف لها القلب. ما معنى أن يُترك الإنسان؟ أن يكون خارج النجاة، خارج الرجاء النافع، خارج المهلة، خارج إمكان التصحيح. في الدنيا كان باب الرجوع مفتوحاً، وكان الإنذار رحمة، وكان العذاب الأدنى قد يأتي لعلهم يرجعون، وكان السمع والبصر والفؤاد لا يزال يمكن أن يستيقظ، أما الآن فقد انتهى زمن الاستدراك. وهذا هو الفرق بين قسوة الدنيا الرحيمة وقسوة الآخرة العادلة؛ في الدنيا قد يؤلمك الله لتعود، أما هناك فمن نسي اللقاء يذوق عذاب الخلد بما كان يعمل.

ثم قال:

(وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

هنا تُربط العقوبة بالعمل. لم يكن الجزاء عبثاً، ولا لأنهم سألوا سؤالاً مجرداً، بل (بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). فالعمل هو الذي يكشف حقيقة الاعتقاد. من كفر بلقاء ربه ظهر كفره في عمله، ومن نسي الآخرة عاش عمله على هيئة النسيان، ومن استكبر عن الآيات لم يبق استكباره شعوراً داخلياً، بل صار فعلاً وسلوكاً وموقفاً. ولهذا لم يقل فقط: بما كنتم تعتقدون، بل بما كنتم تعملون؛ لأن الإيمان والكفر في القرآن ليسا فكرتين معزولتين عن الحياة، بل حقيقتان تظهران في العمل.

وإذا وضعنا هذا المشهد بجانب مشهد المؤمنين في السورة رأينا تقابلاً مدهشاً: هناك مجرمون ناكسو الرؤوس، وهنا مؤمنون يخرون سجداً. هناك يقولون: أبصرنا وسمعنا، وهنا المؤمنون إذا ذُكِّروا بالآيات استجابوا. هناك يطلبون الرجوع ليعملوا صالحاً، وهنا المؤمنون يعملون قبل الرجوع. هناك عذاب الخلد بما كانوا يعملون، وهنا قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون. هناك نسيان لقاء اليوم، وهنا قيامٌ في الليل خوفاً وطمعاً. السورة تبني طريقين متقابلين، ولا تسمح بخلطهما.

إن مشهد نكس الرؤوس يعلمنا أن الإنسان لا بد أن ينكسر؛ إما أن ينكسر لله في الدنيا انكسار عبودية يرفع، أو ينكسر أمام العقوبة في الآخرة انكسار فضيحة لا ينفع. وهذه ليست مبالغة وعظية، بل بنية قرآنية واضحة في السورة. فالسجود هو علاج الرأس قبل يوم النكس؛ كل سجدة صادقة تدريبٌ على أن لا يكون رأسك مرفوعاً بالباطل، وكل قيامٌ من مضجع الغفلة نجاةٌ

من طلب الرجوع بعد فواته، وكل إنفاقٍ من الرزق تصحيحٌ لعلاقة العبد بما أُعطي قبل أن يُسأل عنه.

وهنا يمكن أن نفهم أن الآخرة في القرآن ليست مجرد خبرٍ عن المستقبل، بل أداة تربيةٍ للحاضر. عندما يعرض القرآن مشهد المجرمين ناكسي الرؤوس، فهو لا يريد أن ننتظر المشهد، بل أن نتحرك قبله. الغيب هنا ليس لإثارة الرعب المجرد، بل لصناعة الوقاية. ومن رحمة الله أن يجعلنا نسمع اعترافهم قبل أن نكون منهم، وأن نقرأ طلبهم الرجعة ونحن لا نزال في دار الرجعة، وأن نسمع قولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ونحن لا نزال قادرين على أن نوقن إيمانًا نافعًا.

إن من أعظم الغفلة أن يقرأ الإنسان هذه الآية وكأنها عن قومٍ آخرين فقط. نعم، هي في المجرمين والكافرين، ولكن فيها موعظةٌ لكل قلبٍ يؤجل، لكل نفسٍ تقول: سأعود لاحقًا، سأصلي بخشوع لاحقًا، سأترك الذنب لاحقًا، سأفتح المصحف لاحقًا، سأصلح قلبي لاحقًا. طلب الرجوع في الآخرة هو الصورة الكبرى لكل تأجيلٍ عاشه الإنسان في الدنيا. والقرآن يقطع سلسلة التأجيل بأن يقول لك: أنت الآن في الزمن الذي يتمناه الناكسون.

وقوله: ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ يكشف أيضًا أن الصلاح ليس معنىً غامضًا، بل عمل. كثيرون يحبون الأفكار الجميلة عن الإيمان، ويتأثرون بالمشاهد القرآنية، وربما يبكون عند سماع الآيات، لكنهم يؤجلون العمل. أما أهل الآخرة النادمون فقد فهموا بعد فوات الأوان أن المطلوب كان عملاً صالحًا، لا مجرد انطباعٍ عاطفي. فالسورة ستصف المؤمنين لا بأنهم تأثروا فقط، بل بأنهم

خَرُّوا سَجْدًا، وسبحوا، ولم يستكبروا، وجافت جنوبهم، ودعوا، وأنفقوا.  
الإيمان الصادق يتحول إلى هيئة وحركة وبذل.

إن هذه الآيات تجعلنا نعيد قراءة كلمة «اليقين». فاليقين ليس مجرد وضوح الفكرة، بل قوة حضورها في القلب حتى تقود العمل. المجرمون قالوا في الآخرة: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، لكن يقينهم لم يعد منتجًا للعمل لأنه جاء بعد انتهاء دار العمل. أما يقين المؤمنين في الدنيا فهو الذي جعلهم يقومون في الليل. فليست العبرة بأن توفن يوم تنكشف الحقائق، بل أن توفن والناس نائمون، وأن تعمل والغيب لا يزال غيبًا، وأن تسجد قبل أن ترى كل شيء، ثقةً بالوحي المنزل من رب العالمين.

ومن هنا يظهر وجه آخر من وجوه عدل الله: الجزاء من جنس المسار. الذين نسوا لقاء يومهم ثركوا، والذين ذكروا ربهم في خفاء الليل أخفي لهم من قرّة الأعين ما لا تعلم نفس. أولئك تعاملوا مع الغيب بالنسيان، فجاءهم الغيب بالعذاب. وهؤلاء تعاملوا مع الغيب بالإيمان والعمل، فجاءهم الغيب بالمفاجأة الكريمة. ما أعظم الفرق بين خفاء يُعدّ لك قرّة عين، وخفاء يخرج عليك بعذاب كنت تنساه.

وفي ختام هذا الفصل تتكون اللبنة الثامنة من معمار السورة: الآخرة ليست احتمالًا مؤجلًا، بل مشهّدٌ محقّقٌ أخبر به الله، ومن لم ينكسر للحق في الدنيا انكسر عند انكشافه في الآخرة. السمع والبصر اللذان لم يُشكرا سيقول صاحبهما هناك: أبصرنا وسمعنا، ولكن بعد فوات النفع. والعمل الصالح الذي كان متاحًا سيصير أمنية لا تُنال. ولذلك فإن سورة السجدة تدفع

الإنسان دفع رحمةٍ إلى أن يسجد الآن، ويوقن الآن، ويعمل الآن، قبل أن  
يصير اليقين اعترافًا متأخرًا، والسجود نكسًا، والرجوع أمنيةً مستحيلة.

## الفصل التاسع

### العذاب الأدنى: حين يكون الألم باباً أخيراً للرجوع

قال الله تعالى:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

بعد أن عرضت السورة مشهد المجرمين ناكسي الرؤوس عند ربهم، وبعد أن سمعنا اعترافهم المتأخر: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾، وبعد أن قيل لهم: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، تعود السورة إلى الدنيا مرة أخرى؛ لا لتخفف من حقيقة العذاب الأكبر، بل لتكشف أن الله يوقظ العباد قبل ذلك بعذابٍ أدنى، وآلامٍ قريبة، ونُذِرٍ تقع في الحياة قبل أن يقع الفصل النهائي.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾.

والذوق هنا كما في الآية السابقة لفظٌ مقصود؛ فالعذاب لا يُعرض عليهم عرضاً نظرياً، بل يباشرون شيئاً منه، يذوقونه في واقعهم، في أجسادهم، في مجتمعاتهم، في أمنهم، في أرزاقهم، في داخلهم، في صورٍ متعددةٍ لا تُقاس كلها بمقياسٍ واحد. وليس المقصود أن كل ألم يقع لإنسانٍ بعينه هو عقوبةٌ مباشرةٌ على ذنبٍ معين؛ فهذا بابٌ غيبيٌّ لا يجوز اقتحامه بغير علم، وقد يكون البلاء رفعاً، وتمحيصاً، وابتلاءً، وتربيةً، ورحمةً خفية. لكن السورة

تتكلم عن سنة عامة: أن الله قد يذيق المعرضين شيئاً من العذاب الأدنى قبل العذاب الأكبر، لا عبثاً ولا انتقاماً عاجلاً مجرداً، بل ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وهذه الجملة الأخيرة تكشف وجه الرحمة في الألم. فالعذاب الأدنى في سياق السورة ليس إغلاقاً للباب، بل طرقٌ شديدٌ عليه. إنه ليس النهاية، بل إنذارٌ قبل النهاية. ليس العذاب الأكبر، بل دونه. وليس الغرض أن يهلكوا مباشرةً، بل أن يرجعوا. وفي هذا تتجلى حكمة قرآنية عميقة: أن بعض الآلام تأتي لتكسر غفلةً لو بقيت لأهلك صاحبها، وأن بعض النقص في الدنيا قد يكون رحمةً لأنه يمنع خسارة الآخرة، وأن بعض ما يراه الإنسان مصيبةً خالصة قد يكون آخر نداءٍ قبل السقوط النهائي.

إن الإنسان قد لا يسمع الآية إذا جاءت في حال الرخاء، وقد لا يتذكر وهو ممتلئ، وقد لا ينتبه وهو آمنٌ في عاداته، فإذا اهتزت الأرض تحت قدمه، أو انكسر شيءٌ من قوته، أو ضاق عليه ما كان واسعاً، أو فقد ما كان يظنه مضموناً، بدأ يسمع بطريقةٍ أخرى. ليست كل نفسٍ تستيقظ بالجمال، وبعض النفوس لا يوقظها إلا الخطر. ومن رحمة الله أن يجعل في الدنيا آلاماً لها وظيفة التذكير، قبل أن يأتي ألمٌ لا وظيفة له إلا الجزاء.

والتعبير بـ﴿الأدنى﴾ مقابل ﴿الأكبر﴾ يضع الدنيا في حجمها الصحيح. مهما اشتد ألم الدنيا فهو أدنى إذا قيس بعذاب الآخرة. ومهما طال فهو محدود إذا قيس بعذاب الخلد. ومهما كان موجعاً فهو لا يزال داخل زمن الرجوع، وهذا وحده يجعله محتملاً بمعنى ما؛ لأن الألم الذي يترك لك باب التوبة أهون من العافية التي تسوقك إلى الغفلة. ولذلك قد يكون البلاء في الدنيا عتاباً من رحمة، أما العذاب الأكبر فهو نتيجة الإصرار بعد قيام الحجة وانتهاء المهلة.

وفي هذا الموضع ينبغي أن نكون دقيقين: القرآن لا يدعونا إلى التشفي بآلام الناس، ولا إلى تفسير كل مصيبة تقع لهم على أنها عقوبة، ولا إلى تسطيح البلاء في معادلة سهلة: ذنبٌ ظاهر يقابله ألمٌ ظاهر. فهذا تبسيطٌ ظالمٌ لمعاني الابتلاء. الأنبياء ابتلوا، والصالحون ابتلوا، وقد يكون البلاء علامة محبة ورفعة وتمحيص. لكن الآية تتحدث عن وجهٍ من وجوه الابتلاء حين يقع للمعرضين؛ وجه التنبيه والإنذار. فالعبرة ليست أن نحاكم الناس من خارج آلامهم، بل أن نحاكم أنفسنا داخل آلامنا: ماذا يريد الله أن يوقظ فينا؟ ما الذي نسيه القلب حتى احتاج إلى هذا الطرق الشديد؟

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

هذه من أرحم العبارات في الموضع كله. فالرجوع يعني أن الطريق لم يخلق بعد. ما دام العذاب أدنى، فهناك مجال للعودة. ما دام الألم في الدنيا، فهناك فرصة للفهم. ما دام القلب يخاف ويتذكر، فهناك بقية حياةٍ يمكن أن تُعاد إلى الله. إن الخطر ليس في أن يتألم الإنسان، بل أن يتألم ولا يرجع؛ أن تصيبه النذر ثم يفسرها كلها تفسيرًا أرضيًا باردًا؛ أن يضيق عليه الأمر فلا يزيده إلا قسوةً واعتراضًا؛ أن يهزّ فلا ينتبه، ويوقظ فلا يستيقظ.

ومن هنا يتضح أن الألم في المنهج القرآني ليس ضد الهداية دائمًا، بل قد يكون من وسائلها. هناك آياتٌ تُتلى، وهناك آياتٌ تُرى، وهناك آياتٌ تُذاق. الآية المتلوة تخاطب السمع، والآية المرئية تخاطب البصر، والآية المذاقة تخاطب الكيان كله. فإذا لم يسمع الإنسان ولم يبصر، فقد يأتيه ما يذوقه في جسده أو أمنه أو رزقه أو علاقاته، لعل الذوق يكسر طبقة الغفلة التي لم يكسرها السماع ولا النظر. وهذا لا يعني أن الألم أعلى من الوحي، بل يعني

أن الله قد يسوق بعض النفوس إلى الوحي من باب الألم حين تغلق أبواب السعة عليها.

ولعل هذا الموضع يفسر لنا سرًا من أسرار السورة في ترتيبها: ذكرت السمع والأبصار والأفئدة، ثم عرضت إنكار البعث، ثم ملك الموت، ثم مشهد المجرمين، ثم العذاب الأدنى. كأنها تقول: إن لم تشكروا السمع والبصر والفؤاد في زمن البيان، وإن لم تتذكروا الخلق الأول، وإن لم تؤمنوا بالرجوع، فهناك نذرٌ أخرى قد تأتي في الدنيا لتردكم قبل فوات الأوان. لكن من أعرض بعد ذلك كله، فقد بلغ الظلم غايته.

ولهذا جاءت الآية التالية:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا).

هنا تبلغ المسألة ذروة التشخيص. الظلم ليس فقط أن يجهل الإنسان، بل أن يُذَكَّر ثم يعرض. أن تأتيه الآيات منتسبةً إلى ربه: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾، لا بآيات غريب عنه، ولا بنداء خصمٍ يريد إذلاله، بل بآيات الرب الذي خلقه ورزقه وسواه وأنذره، ثم يعرض. وهذا من أظلم الظلم؛ لأن الإعراض بعد التذكير خيانةٌ مضاعفة: خيانةٌ للآية، وخيانةٌ للرب، وخيانةٌ للنفس، وخيانةٌ للسمع والبصر والفؤاد.

والتذكير هنا يحمل معنى أن الآيات لا تأتي لتتنشئ الحقيقة من العدم في النفس، بل لتوقظ ما غطته الغفلة. فالإنسان يعرف في أعماقه أنه ليس خالق نفسه، وأن الموت ينتظره، وأن الظلم لا ينبغي أن يكون النهاية، وأن للوجود معنىً أعلى من الشهوة. لكن الهوى يطمس، والعادة تطمس، والكبر يطمس، فيأتي

الوحي مذكّرًا. فإذا أعرض الإنسان بعد التذكير، فقد أعلن أنه لا يريد النجاة، لا لأنه لم يجد الطريق، بل لأنه لا يريد السير فيه.

وقوله: (ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) يوحي بأن الإعراض جاء بعد مهلة إدراك. لم يكن الأمر مجرد غفلة عابرة، بل موقفٌ اتخذ بعد أن وصل التذكير. والإعراض في القرآن ليس دائمًا تكذيبًا صريحًا؛ قد يكون تركًا، أو تجاهلاً، أو تأجيلًا، أو انصرافًا إلى غير الآية، أو تعاملًا معها كأنها لا تعنيه. وكم من إنسانٍ لا يقول بلسانه إنه يكذب بآيات الله، لكنه إذا ذُكر بها لم يتحرك فيه شيء، وكأن الآيات نزلت لقوم آخرين. وهذه صورةٌ خفيةٌ من الإعراض العملي، يجب أن يخاف منها المؤمن على نفسه.

ثم يأتي الوعيد:

(إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ).

وهذا الختام شديد؛ لأنه يأتي بعد فتح باب الرجوع. فحين يكون العذاب الأدنى لعلمهم يرجعون، ثم يأتي التذكير بالآيات، ثم يقع الإعراض، لم يعد المقام مقام تذكير فقط، بل مقام عدلٍ وانتقامٍ من الإجرام. والانتقام هنا ليس انفعالًا بشريًا، تعالى الله عن ذلك، بل مجازاةٌ عادلةٌ للمجرمين بعد قيام الحجة وإصرارهم على الجريمة. فالله سبحانه عزيز رحيم، ومن عزته أن لا يترك الإجرام بلا حساب، ومن رحمته أنه أنذر قبل أن يأخذ.

إن في الجمع بين (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) و(إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ) توازنًا عظيمًا: رحمةٌ تفتح الباب، وعدلٌ يغلقه على من أصر. فلا يجوز أن نفهم رحمة الله على أنها إلغاء للعاقبة، ولا أن نفهم وعيده على أنه غياب للرحمة.

الرحمة سبقت بالإندار، والعذاب الأدنى جاء للتنبيه، والآيات ذُكر بها الإنسان، فإذا اختار الإعراض بعد ذلك، فإن العدل يأخذ مجراه. وهذا هو القرآن: لا يؤمن الغافل حتى يطغى، ولا يقتط التائب حتى ييأس.

وهنا ينبغي أن نتأمل العلاقة بين النسيان والإعراض. في الآيات السابقة قيل لهم: (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا)، وهنا قيل: (ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا). كأن التذكير هو علاج النسيان، والإعراض هو رفض العلاج. فإذا نسي الإنسان الآخرة جاءته الآية لتذكّره، فإذا أعرض عنها بقي النسيان متعمداً. ولذلك يستحق الوعيد؛ لأن الغفلة بعد التذكير ليست كالغفلة قبل التذكير.

إن العذاب الأدنى في هذا السياق ليس فقط ألماً خارجياً، بل قد يكون كل ما يكشف هشاشة الإنسان: مرضٌ يذكره بضعف الجسد، فقرٌ يذكره بحاجته، خوفٌ يذكره بزوال الأمن، فقدٌ يذكره بأن الدنيا ليست ملكاً لأحد، اضطرابٌ داخليٌ يذكره أن القلب لا يسكن إلا بالله. وقد تكون المجتمعات أيضاً معرضةً لعذاباتٍ أدنى حين تتراكم فيها سنن الفساد: تفكك، خوف، قسوة، ظلم، ضياع معنى، انطفاء روح. وكل ذلك يمكن أن يكون نداءً: ارجعوا قبل الأكبر.

لكن الإنسان قد يفسر الألم تفسيراً يزيد به بعداً. إذا ضاق رزقه قال: حظ. وإذا مرض قال: طبيعة. وإذا فُجع قال: عبث الحياة. وإذا رأى اضطراب العالم قال: سياسة ومصالح فقط. والتفسير السببي في ذاته ليس خطأ، لكن الخطأ أن يغلق المعنى عند السبب. القرآن لا يمنعك من معرفة السبب الأرضي، لكنه يطالبك ألا تفقد الرسالة الربانية. قد يكون للمرض سببٌ طبي، وللخوف سببٌ سياسي، ولل فقر سببٌ اقتصادي، لكن المؤمن يسأل فوق ذلك: أين موضع

العبرة؟ ما الذي ينبغي أن أرجع فيه إلى الله؟ ماذا تقول لي هذه الهزة عن ضعفي وعن حاجتي وعن مصيري؟

ومن هنا نفهم أن الرجوع ليس عاطفةً مؤقتةً عند الشدة، بل تحولٌ في الاتجاه. كثيرون يرجعون لحظة الألم ثم إذا كشف الله عنهم عادوا إلى ما كانوا عليه. هذا ليس رجوعاً كاملاً، بل اضطراب خوف. الرجوع القرآني أن يتحول الألم إلى بصيرة، وأن تصير الهزة بداية طريق، وأن لا يخرج الإنسان من المحنة كما دخلها، بل يخرج وقد انكسر فيه شيءٌ من الكبر، واستيقظ فيه شيءٌ من الشكر، وتغيرت علاقته بربه وبنفسه وبالدين.

والسورة، وهي تتحدث عن العذاب الأدنى، لا تريد أن تصنع وعياً سوداوياً يرى في كل ما يحدث عقوبة، بل وعياً يقظاً يرى في كل ما يحدث احتمال رسالة. الفرق كبير بين من يفسر الكون كله بمنطق العقوبة، ومن يقرأه بمنطق التذكير. الأول قد يقسو على الناس ويسيء الظن بربه، والثاني يلين قلبه ويصلح نفسه. نحن لا نملك أن نجزم في مصائر الناس، لكننا نملك أن نعتبر لأنفسنا. ومن الأدب مع الله أن لا نحاكم آلام الآخرين، بل أن نخاف من غفلتنا نحن.

ومركز الآية في النهاية هو الرجوع. والعجيب أن السورة تستعمل قبل ذلك الرجوع إلى الرب بعد الموت: (ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)، وهنا تستعمل الرجوع في الدنيا: (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ). فمن رجع في الدنيا إلى الله طوعاً، كان رجوعه بعد الموت رجوع عبدٍ يرجو رحمة ربه. ومن لم يرجع في الدنيا، رجع بعد الموت قهراً، ثم قال: (فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا)، فلا يرجع. فهناك رجوعٌ ينفع، ورجوعٌ لا ينفع؛ رجوع التوبة قبل الموت، ورجوع المصير بعد الموت.

وهذا هو لبّ التربية في سورة السجدة: أن تنقل الإنسان من الرجوع القهري المؤجل إلى الرجوع الاختياري الحاضر. أن يرجع بسمعه إلى الوحي، وببصره إلى الاعتبار، وبفؤاده إلى اليقين، وبجسده إلى السجود، وبجنبه عن المضجع، وبماله إلى الإنفاق. فالرجوع ليس كلمة في اللسان؛ إنه إعادة توجيه كاملة للإنسان نحو ربه.

إن قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يجعل الإعراض عن الآيات قمة الظلم، لأنه ظلم يقع بعد أن مُنح الإنسان فرصة النجاة. فالظالم هنا لم يُترك بلا دليل، ولم يُحرم من نذير، ولم يُغلق عنه باب الرجوع؛ بل ذُكر بآيات ربه، ثم اختار أن يدير ظهره. وهذا يفسر لماذا كان المؤمنون في السورة على النقيض تمامًا: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾. هناك من ذُكر فأعرض، وهنا من ذُكر فسجد. وهذا هو المفصل الحاسم في السورة كلها.

كأن الآيات تقول: ليست المشكلة في التذكير، بل في الجواب عليه. الآيات نفسها قد تمرّ على قلبين؛ قلبٌ إذا ذُكر أعرض، وقلبٌ إذا ذُكر خرّ ساجدًا. الأول يذهب إلى الانتقام، والثاني يذهب إلى قرّة العين. الأول يذوق العذاب الأدنى ثم لا يرجع، والثاني يذوق حلاوة الخفاء مع الله في الليل. الأول ينسى لقاء يومه، والثاني يجعله حاضرًا حتى في فراشه. وهكذا تصنع الاستجابة مصيرًا، ويصنع الإعراض مصيرًا آخر.

وفي نهاية هذا الفصل تتكون اللبنة التاسعة من معمار السورة: الألم في الدنيا قد يكون نداءً قبل النداء الأخير، والعذاب الأدنى قد يكون بابًا للرجوع قبل العذاب الأكبر. لكن الخطر كل الخطر أن يُذكَر الإنسان بآيات ربه ثم يعرض، وأن تأتية النذر فلا تزيده إلا قسوة. فمن أراد النجاة فليتعلم

أن يقرأ أوجاعه قراءة رجوع، لا قراءة اعتراض؛ وأن يستجيب للآيات إذا  
ذُكر بها، لا أن ينتظر حتى يقول مع الناكسين: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾، فقد  
يكون الألم الذي يرده إلى الله رحمةً، وقد تكون العافية التي تُبقيه معرضاً  
استدراجاً لا يدري به.

## الفصل العاشر

### مؤشرات الإيمان الباطن في الجسد الظاهر

قال الله تعالى:

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾).

هنا تبلغ السورة قلبها النابض. بعد أن عرضت مصدر الوحي، وردت تهمة الافتراء، وفتحت مشهد الخلق والتدبير، وذكرت الإنسان بأصله وأدواته، وواجهت إنكار البعث، وأحضرت ملك الموت، وصورت المجرمين ناكسي الرؤوس، وذكرت العذاب الأدنى والآيات التي يُعرض عنها المعرضون؛ جاءت الآن لتقول لنا: من هو المؤمن حقاً؟ ما هيئة الإنسان الذي انتفع بكل ما سبق؟ ما أثر الوحي في الجسد إذا صدق القلب؟ ما العلامة التي تفرق بين من سمع الآيات ثم أعرض، ومن سمعها فانقلبت حياته؟

تبدأ الآية بصيغة الحصر:

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا).

وهذا افتتاح حاسم لا يسمح بتحويل الإيمان إلى دعوى واسعة بلا علامات. ليس كل من قال: آمنت، استوى مع من إذا ذُكر خضع. وليس الإيمان بالآيات مجرد قبول ذهني بأن القرآن حق، مع بقاء الجبهة متكبرة، واللسان غافلاً،

والجنب مستسلمًا، واليد قابضة. إن السورة تضع معيارًا عمليًا: الإيمان إذا دخل القلب ظهر على هيئة الإنسان. لا لأننا نفتش في القلوب، بل لأن القلب الحي لا يبقى بلا أثر.

وقوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يعيدنا إلى الآية السابقة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾. هناك ذُكِّرَ فأعرض، وهنا ذُكِّرَ فسجد. الآيات واحدة، لكن القلوب مختلفة. فالقرآن لا يعمل في الناس عملاً آلياً، بل يكشف استعدادهم؛ من جاءه بقلب متواضع صار له شفاء وهدى، ومن جاءه بقلب مستكبر زاده خسارًا من جهة إعراضه عنه. ليست المشكلة في نور الآية، بل في العين التي تقابله.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾.

التعبير بـ﴿خَرُّوا﴾ يحمل معنى السقوط السريع من علٍ إلى خضوع؛ ليس قيامًا باردًا محسوبًا، بل استجابة تَهَرُّ الجسد. وكأن الآية حين بلغت القلب قطعت على الإنسان تماسك كبريائه، فلم يجد إلا أن يخِرَّ. والسجود هنا علامة على أن الوحي لم يبقَ في منطقة الفهم المجرد، بل وصل إلى مفصل الكيان. إن هناك معاني إذا صدقت في الداخل لم تعد تحتل بقاء الرأس كما هو. وحين يعرف الإنسان من هو الله، ومن هو هو، وما حقيقة الوحي، وما حقيقة الموت والرجوع، يصبح السجود هو الوضع الطبيعي للعقل والقلب والجسد.

والسجود في هذا الموضع ليس مجرد حركة فقهية معزولة، وإن كان سجود التلاوة داخلًا في معنى الاستجابة، بل هو أوسع من ذلك: هو موقف العبودية عند التذكير. كلما ذُكرته الآية بمن خلقه، بمن رزقه، بمن سيعيده، بمن يعلم غيبه وشهادته، وجد في نفسه انكسارًا. فالإنسان المؤمن لا يتعامل مع التذكير

القرآني كما يتعامل مع نصٍ جميلٍ يعلّق عليه إعجابًا ثم يمضي، بل يتلقاه كخطابٍ من ربه يطلب منه أن يتغير.

ثم قال:

(وَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ).

بعد السجود يأتي التسبيح بحمد الرب. والتسبيح تنزيهٌ لله عن كل نقصٍ لا يليق بجلاله، والحمد إثباتٌ لكَماله ونعمه. فكأن المؤمن إذا سجد جمع بين أمرين: تنزيه الله عن مشابهة خلقه، وعن الظلم، وعن العبث، وعن أن يكون خلق الإنسان سدى، وحمده على الوحي، والخلق، والهداية، والإنذار، والإمهال، والرزق، والقدرة على الرجوع. فهو لا يسجد خائفًا فقط، بل يسجد عارفًا بربه، منزهاً حامداً.

والجمع بين التسبيح والحمد بالغ الدقة؛ لأن من عرف جلال الله سبّح، ومن عرف إحسانه حمد. التسبيح يمنع التشبيه والاعتراض، والحمد يمنع الجحود واليأس. فالمؤمن أمام آيات سورة السجدة لا يرى ربًّا قاهرًا فقط، بل يرى ربًّا عزيزًا رحيمًا؛ خلق وأحسن، سوّى وكزّم، أنذر ليهدي، أذاق من العذاب الأدنى لعلهم يرجعون، وأخفى للمؤمنين ما لا تعلم نفس من قرّة أعين. لذلك يقول بجسده: سجدت، وبلسانه وقلبه: سبحانك وبحمدك.

ثم قال:

(وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ).

وهذه الجملة تكشف الجذر العميق لكل ما سبق. فالإيمان بالآيات لا يجتمع مع الاستكبار عليها. قد يقرأ الإنسان القرآن، وقد يفهم بعض معانيه، وقد يتأثر بجماله، لكنه إذا بقي مستكبراً لم يدخل حقيقة الإيمان كما تريدها السورة. فالاستكبار هو الحجاب الذي جعل قومًا يقولون: افتراه، وجعل آخرين يستبعدون البعث، وجعل مجرمين ينسون لقاء يومهم. أما المؤمن فقد كُسر فيه هذا الأصل الفاسد. لا يستكبر عن السجود، ولا عن التوبة، ولا عن الاعتراف بضعفه، ولا عن أن يكون عبدًا.

ومن أعجب ما في السورة أن السجود يجيء هنا علاجًا مباشرًا للاستكبار. فالمتكبر يريد أن يرفع نفسه، والساجد يضع أشرف مواضع ظاهره على الأرض لله. لكن هذا الوضع لا يهيئه، بل يحرره؛ لأن الإنسان إذا لم يسجد لله سجد لمعانٍ أخرى دون أن يشعر: يسجد لشهوته، أو لمكانته، أو لصورة الناس عنه، أو لخوفه، أو لماله، أو لفكرته عن نفسه. السجود لله وحده تحريرٌ من كل هذه العبوديات الصغيرة. ومن هنا كان الإنسان كلما ازداد سجودًا لله ازداد عزّةً أمام ما سواه.

ثم تنتقل الآية إلى مشهدٍ من أرقى مشاهد الإيمان الخفي:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ).

لم يقل: يقومون من الليل، مع أن هذا المعنى حاضر، بل اختار صورة الجنب والمضجع. الجنب هو موضع الثقل، والمضجع هو موضع الراحة، والليل هو زمن الاستسلام للنوم. فإذا قالت الآية: (تَتَجَافَى)، فقد صورت صراعًا صامتًا بين الجسد والمعنى. الجنب يريد أن يلتصق، والفراش يدعو إلى السكون، والتعب يطلب حقه، لكن ذكر الله والآخرة والخوف والطمع يخلق

في الجسد مسافةً عن المضجع. ليست المسألة أن المؤمن لا يحتاج إلى النوم، بل أن النوم لم يعد يملك عليه السلطان كله.

والتجافي غير الترك الكامل؛ فيه معنى المباحة بعد قرب، والمجاهدة بعد ميل. وهذا أدق في وصف الإنسان. المؤمن ليس حجرًا لا يشعر براحة المضجع، ولا جسدًا منزوع الحاجة، بل هو إنسانٌ يتنازع نداءً: نداء الطين ونداء اليقين. الطين يقول: نم، واليقين يقول: قم. الجسد يقول: استرح، والآخرة تقول: تزود. الفراش يقول: ابق، والقلب يقول: ادع ربك خوفًا وطمعًا. وفي هذه المجاهدة يظهر صدق الإيمان؛ لأن العبادة التي تنتزعك من موضع الراحة تكشف أن في قلبك معنى أقوى من اللذة القريبة.

وهنا نرى كيف تخدم آيات الخلق هذا المشهد. لقد قالت السورة إن الإنسان بدأ من طين، وإن نسله من ماء مهين، ثم سوي ونفخ فيه من الروح. وفي مشهد المضاجع نرى هذه الحقيقة تتحرك: الجسد من طين يحب السكون، والروح المكرمة تطلب المناجاة، والفؤاد الذي آمن باللقاء لا يسمح للجسد أن يكون سيدًا مطلقًا. فقيام الليل ليس رفضًا للجسد، بل وضعٌ للجسد في مقام العبودية. الجسد ينام حين يكون النوم طاعة، ويقوم حين يكون القيام حياة للقلب.

ثم قال:

(يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا).

هنا يكشف القرآن عن باطن قيامهم. ليس قيامًا لاستعراض الزهد، ولا لطلب صورة العابد في أعين الناس، ولا لهروبٍ مرضي من الحياة، بل دعاءٌ للرب.

والرب هنا هو الذي تكرر ذكره في السورة: رب العالمين، ربك، ربهم، ربكم. يقومون إلى من خلقهم وسواهم ورزقهم وأنذرهم، يدعونه لا ببرودٍ ذهني، بل بين خوفٍ وطمع. وهذان الجناحان هما توازن النفس المؤمنة؛ الخوف يمنع الأمن الكاذب، والطمع يمنع اليأس؛ الخوف يذكر بالعذاب الأكبر، والطمع يذكر بالرحمة وقرة الأعين؛ الخوف يقول: لا تغتر، والطمع يقول: لا تقنط.

والقرآن لم يقل: خوفًا فقط، حتى لا تتحول العبادة إلى رعبٍ يائس، ولم يقل: طمعًا فقط، حتى لا تتحول إلى رجاءٍ مغرور. المؤمن يعرف أنه مقصر مهما عمل، فيخاف، ويعرف أن ربه رحيم، فيطمع. يخاف من نسيان لقاء اليوم، ويطمع فيما أخفى له من قرة أعين. يخاف أن يكون ممن ذُكر فأعرض، ويطمع أن يكون ممن ذُكر فسجد. وهكذا يتحرك الليل في قلبه بين جلال الوعيد وجمال الوعد.

إن عبارة (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) تدل على صلة حية، لا على مجرد أداء. الدعاء هنا جامعٌ للسؤال والعبادة والمناجاة والافتقار. في الليل ينهار التزييف؛ لا جمهور، لا صخب، لا مديح، لا ألقاب، لا صور. يبقى العبد وربّه. ومن صدق في هذا الموضع فقد امتلك سرًّا لا تصنعه العلانية. لذلك سيأتي الجزاء مناسبًا: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ)؛ أخفوا عملهم، فأخفى الله لهم جزاءهم. تركوا راحةً لا يراها الناس، فأعدّ لهم نعيمًا لا تعلمه نفس.

ثم تختتم الآية بقول الله تعالى:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ).

وهذا الختام يمنع الفهم من أن يحصر الإيمان في خلوة الليل وحدها. فالمؤمن الذي يقوم بين يدي الله في الظلام لا بد أن يظهر أثر قيامه في علاقته بالخلق والمال. من صدق في السجود لم يستعبده الرزق. ومن عرف أن ما عنده مما رزقه الله، لم يتصرف فيه كمالكٍ مطلق. وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ يربّي على أصل الإنفاق: المال ليس من ذاتك استقلالاً، بل رزقٌ من الله، فإذا أنفقت فإنما ترد بعض النعمة إلى وجهتها.

وجمع السورة بين قيام الليل والإنفاق دقيق؛ لأن الإنسان يُبتلى غالباً في موضعين: راحة الجسد، وحب المال. فمن تغلب على المضجع، وتغلب على الشح، فقد ظهرت فيه دلائل صدقٍ عظيمة. الأول يكشف علاقته بلذة البدن، والثاني يكشف علاقته بلذة التملك. الأول خفاءً بين العبد وربّه، والثاني أثرٌ اجتماعيٌّ يعود نفعه على الناس. وبهذا لا يصنع القرآن إنساناً روحانياً منعزلاً عن المجتمع، ولا فاعلاً اجتماعياً بلا سرٍّ مع الله، بل يصنع عبداً له ليلٌ مع ربّه، ويدٌ مفتوحةٌ لعباده.

وهذه الآيات ترسم خماسية الإيمان العملي في سورة السجدة: السجود، التسبيح، ترك الاستكبار، قيام الليل، الإنفاق. وكل واحدةٍ منها تعالج مرضاً من أمراض النفس. السجود يعالج الكبر، والتسبيح يعالج سوء التصور عن الله، والحمد يعالج الجحود، وقيام الليل يعالج الغفلة وعبودية الراحة، والإنفاق يعالج الشح وعبودية المال. وهكذا لا تكون العبادة حركاتٍ متناثرة، بل نظام شفاءٍ كامل للإنسان.

ومن اللافت أن الآيات قالت: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ ثم ذكرت أعمالاً ظاهرة، وكأنها تقرر أن الإيمان الباطن لا ينفصل عن آثاره. نعم، قد يضعف الإنسان،

وقد يتفاوت المؤمنون، وقد لا يبلغ كل واحدٍ أعلى المقامات، لكن أصل المعنى واضح: الإيمان إذا لم يغير علاقة الإنسان بالآية، وبالجبهة، وبالليل، وبالمال، فهناك خللٌ يحتاج إلى مراجعة. ليس المطلوب أن يدّعي الإنسان الكمال، بل أن يسأل: هل للآيات أثرٌ فيّ؟ هل إذا ذُكرت بها تحرك شيءٌ من قلبي؟ هل بقي فيّ استكبارٌ يمنعني من السجود؟ هل صار فراشي أقوى من آخرتي؟ هل صار رزقي حجابًا عن رازقي؟

إن هذه الآيات أيضًا تعيد تعريف «المؤمن الصادق» بعيدًا عن الادعاء اللساني. المؤمن ليس فقط من ينتصر للحق في الجدل، بل من ينكسر للحق في الخفاء. ليس فقط من يرفض تهمة الافتراء، بل من يجعل تنزيل الكتاب يوقظه في الليل. ليس فقط من يثبت البعث نظريًا، بل من يخاف لقاء ربه حتى يدعوه. ليس فقط من يذم المجرمين الناكسين، بل من يتعلم أن يسجد قبل النكس. وهذا هو الفارق بين المعرفة التي تظل في الرأس، والمعرفة التي تنزل إلى الجنب واليد.

وفي مشهد (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ) سرُّ إنساني عميق: أن أشرف التحولات تبدأ أحيانًا من أهدأ الأماكن. ليس في ساحات القتال، ولا فوق المنابر، ولا أمام الجماهير، بل في فراشٍ دافئٍ لا يراك فيه أحد. هناك يُمتحن صدق الآخرة في قلبك. هناك يظهر هل أنت عبدٌ للراحة أم طالبٌ للرضا. هناك لا يستطيع الرياء أن يجد جمهورًا بسهولة. ولذلك كان هذا الموضع من أصدق مؤشرات الإيمان؛ لأنه يحدث حين تكون قادرًا على ألا يحدث، وحين لا يعاقبك الناس إن بقيت نائمًا، ولا يمدحونك إن قمت.

ومع هذا، ينبغي أن تُقرأ الآية بروح الرحمة لا بروح القسوة. فليست دعوة إلى احتقار النوم، ولا إلى إرهاق الجسد فوق طاقته، ولا إلى تحويل قيام الليل إلى معيارٍ للتعالي على الناس. بل هي كشفٌ لمقامٍ رفيع من مقامات المؤمنين، ودعوة إلى أن يكون للعبد نصيبٌ من الليل بحسب طاقته، وأن لا يكون المضجع رمزًا للغلة المطلقة. قد تكون ركعتان صادقتان، أو دعاءٌ في السحر، أو تلاوةٌ خفية، أو لحظة توبةٍ تقطع استرسال النوم. المقصود أن يبقى في حياة المؤمن وقتٌ ينتصر فيه اليقين على الراحة.

وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ يمنع كذلك من مرضين: مرض الأمن من مكر الله، ومرض القنوط من رحمة الله. بعض الناس إذا أطاع اغتر، وبعضهم إذا أذنب يئس. أما المؤمن فيعيش بين الخوف والطمع؛ إذا أطاع خاف ألا تُقبل منه، وإذا أذنب طمع في مغفرة ربه، وإذا قام الليل لم ير نفسه على الله، بل رأى أن الله هو الذي أيقظه ووقفه. وهذا يحفظ العبادة من أن تتحول إلى مادة كبر، وهي جاءت أصلاً لهدم الكبر.

ومن هنا نفهم لماذا قال قبلها: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. حتى العبادة نفسها قد يدخلها الاستكبار إذا نسي العبد فضل الله عليه. فقد يقوم الليل ثم يحتقر النائمين، وينفق ثم يمين على المحتاجين، ويسجد ثم يرى لنفسه مقامًا فوق غيره. هذا ليس من روح الآية؛ لأن الذين وصفهم الله لا يستكبرون. سجودهم زادهم تواضعًا، وقيامهم زادهم خوفًا، وإنفاقهم زادهم شكرًا. فالعلامة الصادقة للطاعة أنها تكسر الكبر، لا أن تلبسه ثوبًا دينيًا.

وهكذا يصبح المؤمن في هذه الآيات إنسانًا متكامل الاستجابة: إذا دُكر، تحرك قلبه وجسده؛ إذا سجد، سبّح وحمد؛ إذا قام، دعا؛ إذا رُزق، أنفق؛ وإذا عبد،

لم يستكبر. هذه ليست أفعالاً منفصلة، بل بنية واحدة: بنية العبد الذي عرف مصدره ومصيره، فعاد إلى الله بجوارحه وأوقاته وأمواله.

وفي نهاية هذا الفصل تتكون اللبنة العاشرة من معمار السورة:  
الإيمان الحق ليس باطنًا معزولاً عن الظاهر، بل نورٌ إذا دخل القلب ظهر في هيئة الإنسان: جبهةٌ تسجد، ولسانٌ يسبح، نفسٌ لا تستكبر، جنبٌ لا يستسلم دائماً للمضجع، قلبٌ يدعو خوفاً وطمعاً، ويدٌ تتفق مما رزق الله. ومن هنا نفهم أن سورة السجدة لا تريد أن تخبرنا عن المؤمنين فقط، بل تريد أن تصنع فينا شيئاً من حقيقتهم؛ أن تجعل الآية إذا ذكرنا بها لا تمرّ على أسماعنا باردة، بل تدفعنا إلى الموضع الذي يليق بمن عرف أنه مخلوقٌ مربوبٌ راجعٌ إلى الله: موضع السجود.

## الفصل الحادي عشر

### فلا تعلم نفس: جزاء الخفاء بخفاء الفضل

قال الله تعالى:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

بعد أن كشفت السورة هيئة المؤمنين الصادقين في الدنيا: سجودًا عند التذكير، وتسبيحًا بحمد الرب، وتحررًا من الاستكبار، وتجاوزًا عن المضاجع، ودعاءً بين الخوف والطمع، وإنفاقًا مما رزق الله؛ جاءت هذه الآية لتفتح باب الجزاء. لكنها لم تفتحه بطريقة مألوفة، بل فتحتة على الغيب المخبوء: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾. وكأن الجزاء هنا لا يُعرّف بتفصيله، بل بعجز النفوس عن الإحاطة به؛ لا لأن القرآن يريد أن يبقي المؤمن في غموض بارد، بل لأن ما أعدّه الله لأهل الخفاء الصادقين أوسع من طاقة اللغة المعتادة، وأبعد من قياس التجربة البشرية، وأكرم من أن يحيط به خيال الإنسان المحدود.

وهذا الافتتاح وحده كافٍ لصناعة الرجاء: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾. لم يقل: فلا يعلمون، بل نفى العلم عن كل نفس؛ أي عن كل إدراكٍ مخلوقٍ مهما اتسع. فالمؤمن يعمل في الدنيا عملاً محدوداً بزمّنه وطاقته وضعفه، لكن الجزاء يتجاوز حدود ما يتصوره. يقوم من فراشه دقائق أو ساعات، ويدعو في ظلمة قصيرة، وينفق من رزقٍ فانٍ، فإذا بالجزاء يدخل في منطقة لا تعلمها نفس.

وهذا من كرم الله: أن العمل الصادق وإن بدا صغيراً في حجمه، قد يُفتح له من فضل الله ما لا يبلغه حساب العامل نفسه.

وقوله: ﴿مَا أَخْفَى لَهُمْ﴾ يربط الجزاء بالخفاء. لقد أخفى هؤلاء شيئاً من عبادتهم؛ جافت جنوبهم عن المضاجع حين كان الناس نائمين، ودعوا ربهم خوفاً وطمعاً في موضعٍ لا يراهم فيه إلا الله، فناسب أن يكون الجزاء مخبوءاً. إن الخفاء الصادق مع الله له عند الله خفاءً من نوعٍ آخر؛ خفاء وعد، لا خفاء حرمان؛ خفاء تكريم، لا خفاء غموض. وكأن الله يخفي لهم ما تقر به أعينهم كما أخفوا له ما صدقت به قلوبهم.

وفي هذا المعنى عدالةٌ جماليةٌ عجيبة: العمل الذي لم يعلم به الناس لا يضيع لأنه لم يدخل في سجلٍ مديحهم، بل ينتقل إلى خزائن الغيب. والدمعة التي سقطت في الظلام، والسجدة التي لم تُصوّرها عين، والدعاء الذي لم يسمعه أحد، والمجاهدة التي لا يعرفها أقرب الناس إليك، كل ذلك ليس معدوماً؛ إنه محفوظٌ عند عالم الغيب والشهادة. بل قد يكون ما خفي عن الناس أعظم أثراً مما ظهر لهم، لأن الخفاء إذا خلص من الرياء صار أقرب إلى الصدق.

والتعبير بـ﴿لَهُمْ﴾ يشعر بالاختصاص والعناية؛ كأن هذا المخبوء مُعدٌّ لهم، محفوظٌ لأجلهم، ينتظرهم. ليس فضلاً عابراً، بل كرامةً مهياًة. وهذا يربي المؤمن على أن لا يستوحش من خفاء عمله، ولا يحزن إذا لم يعرف الناس قدر مجاهدته، ولا يضعف إذا لم يصفق له أحد. من عرف أن الله أخفى له ما لا تعلم نفس استغنى عن كثيرٍ من ضجيج الاعتراف البشري. فالناس قد لا يعلمون، لكن الله يعلم؛ والناس قد ينسون، لكن الله لا يضيع عنده شيء؛ والناس

قد يبخسون، لكن الجزاء عند الله ليس على قدر نظرهم، بل على قدر فضله وعدله ورحمته.

ثم قال: ﴿مِنْ قُرَّةٍ أَعْيُنٍ﴾.

قرة العين تعبيرٌ شديد اللطف؛ فهي ليست مجرد لذة، ولا مجرد نعيم حسي، بل سكونٌ عميقٌ للعين والقلب، وفرحٌ يبلغ من النفس موضع الطمأنينة، حتى كأن العين لا تطلب بعده شيئاً غير ما ترى. في الدنيا كانت أعين المؤمنين قد تُحرم من بعض محبوباتها، وقد تغض عن بعض شهواتها، وقد تسهر حين تنام عيون الناس، وقد تبكي خوفاً وطمعاً، فجاء الوعد بقرة الأعين. وما أعجب المناسبة: أعينٌ ربما فاضت في الخلوة، وأعينٌ ربما قاومت النوم، وأعينٌ ربما غضت ابتغاء الله، تُعطى يوماً ما تقر به فلا تطلب انتقالاً عنه.

وقرة العين هنا ليست نعيماً نفسياً رمزياً فحسب، بل نعيمٌ حقيقيٌّ في الآخرة، كما أخبر الله، لا يجوز تذويبه إلى مجرد حالةٍ داخلية أو معنى مجازي. نعم، للآية أثرٌ في القلب الآن، لكنها تتحدث عن جزاءٍ مخبوءٍ حقيقيٍّ أعدّه الله لعباده المؤمنين. وهذا من ثوابت الغيب: أن الجنة حق، ونعيمها حق، وقرة الأعين فيها حق، لا نحيط بكيفيته، ولا نقيسه على نعيم الدنيا، ولا نخترله في استعارة. فكما أن العمل في الدنيا حقيقيٌّ، فالجزاء في الآخرة حقيقيٌّ، بل أكمل وأبقى وأجل.

ومع ذلك، فإن القرآن حين يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ يمنعنا من حبس النعيم في صورنا المحدودة. نحن نسمع الألفاظ، ونفهم منها أصل المعنى، لكن حقيقة ما أعدّه الله فوق ما نعرف. وهذا يفتح باب التعظيم لا باب التأويل المفرغ؛ نؤمن بالحقيقة، ونفوض كيفية ما لا نعلم إلى الله. فنحن لا ننفي النعيم لأنه

فوق تصورنا، ولا نشبّهه بنعيم الدنيا لأننا لا نعرف غيرها، بل نقف موقف المؤمن: نصدق الخبر، وننزّه الغيب الأخروي عن أن يُحصَر في قياساتنا الفانية.

ثم قال: ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هنا يعود القرآن إلى العمل. لم تكن قرّة الأعين المخبوءة جزاءً للأمانى، ولا للانفعال العابر، ولا للدعوى المجردة، بل ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وهذا يربط الآية بما قبلها: كانوا يسجدون، ويسبحون، ولا يستكبرون، وتتجافى جنوبهم، ويدعون، وينفقون. فالجزاء المخبوء له طريقٌ ظاهر في الدنيا: عملٌ صالحٌ صادق. وهكذا يمنع القرآن الرجاء من أن يتحول إلى كسل؛ نعم، الفضل واسع، لكن طريقه العمل، والعمل نفسه لا يكون مقبولاّ إلا بفضل الله وتوفيقه.

والعبارة ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تدل على الاستمرار والعادة، لا على ومضةٍ عابرة فقط. هؤلاء لم تكن علاقتهم بالطاعة لحظة انفعال ثم انقطاع، بل صار العمل سمنًا في حياتهم. قد يضعفون، قد ينامون أحيانًا، قد تغلبهم بشريتهم، لكن اتجاههم العام عملٌ لله. وهذا مهم؛ لأن السورة لا تعرض صورةً خياليةً لإنسانٍ بلا ضعف، بل تعرض إنسانًا غلب عليه صدق الاتجاه. أهل قرّة الأعين ليسوا ملائكة، بل بشرٌ جاهدوا بشرية الجسد، واستجابوا للآيات، وحفظوا لليل سرًا، وللرزق حقًا.

وإذا نظرنا إلى موقع هذه الآية بعد آيات المؤمنين، رأينا أنها تنتقذ العبادة من ثقلها الظاهر. فقد يسمع الإنسان: تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فيرى التكليف شاقًا. ثم تأتي الآية: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾، فنقول له: لا تقس ما تتركه بما ستأخذه. لا تقس دقائق النوم التي قاومتها بقرة العين التي أخفيت لك. لا تقس

المال الذي أنفقته بما أعده الله. لا تقس تعب الدعاء بلذة الإجابة الكبرى. إن حسابات الدنيا لا تصلح لميزان الآخرة؛ ما تتركه الله محدود، وما يدخره الله لك لا تعلمه نفس.

وهذا هو منطق التجارة مع الله في أرقى صورهِ. المؤمن لا يحتقر الدنيا لأنها لا قيمة لها مطلقاً، بل يضعها في موضعها؛ يعرف أن لذة المضجع قريبة، لكن قرة العين أبقي؛ وأن حفظ المال يرضي الشح، لكن الإنفاق يرضي الله؛ وأن النوم يريح الجسد، لكن الدعاء يحيي القلب؛ وأن مدح الناس عاجل، لكن المخبوء عند الله أعظم. ومن دخل هذا الميزان خفت عليه المجاهدة؛ لأنه صار يرى ما وراء اللحظة، لا اللحظة وحدها.

إن الآية تُنشئ في القلب أدباً مع العمل الخفي. في زمنٍ يحب الإنسان أن يرى، وأن تُسجل لحظاته، وأن تُعلن إنجازاته، وأن تُقاس قيمته بما يظهر منه، تأتي هذه الآية لتقول: أعظم ما لك قد يكون ما لا يعرفه أحد. ليست كل قيمة قابلة للإعلان، وليست كل طاعة تُنقص إذا بقيت مجهولة، بل قد تزيد. هناك أعمالٌ إذا بقيت بينك وبين الله صارت أنقى، وهناك لحظاتٌ لو علم بها الناس دخل عليها ما يعكر صفاءها. ولذلك كان الليل مدرسة الإخلاص؛ لأنه يسلب العبادة جمهورها، فيبقى سؤالها الحقيقي: لمن تقوم؟

وهذا لا يعني أن العمل الظاهر مذموم، فالإنفاق غالباً يظهر أثره، والدعوة إلى الخير قد تظهر، والعبادات الجماعية ظاهرة بطبيعتها. لكن السورة تجمع بين الخفاء والظهور في توازنٍ بديع: قيام الليل خفاء، والإنفاق أثرٌ في الناس؛ الدعاء سر، والبذل إصلاح؛ السجود عند التذكير إعلان خضوع، وترك المضجع سر مجاهدة. فمن كان له سرٌّ مع الله سلم ظاهره من كثيرٍ من آفات

التصنع، ومن كان له أثرٌ في الناس سلم باطنه من الانعزال الكسول. المؤمن القرآني ليس ممثلاً أمام الناس، ولا ناسكاً منقطعاً عن حاجاتهم؛ هو عبدٌ له خبيئة، وله نفقة.

وقرة العين المخبوءة تأتي أيضاً جواباً على مشهد المجرمين. أولئك ذاقوا عذاب الخلد بما كانوا يعملون، وهؤلاء أخفي لهم من قرّة أعين جزاءً بما كانوا يعملون. هناك ذوق عذاب، وهنا قرّة عين. هناك نسيانٌ للقاء اليوم، وهنا ذكرٌ يوقظ الليل. هناك طلب رجعة للعمل الصالح بعد الفوات، وهنا عملٌ صالحٌ قبل الفوات. هناك ناكسو رؤوس، وهنا خرّوا سجداً. فالسورة لا تعرض الوعيد وحده، بل تضع بجانبه الوعد؛ حتى لا يتحول الخوف إلى يأس، ولا يتحول الرجاء إلى غفلة.

والأثر التربوي لهذه الآية بالغ العمق؛ فهي تجعل المؤمن يحتمل نقص الدنيا بكرامة. قد لا يجد المؤمن في الدنيا كل ما تقر به عينه؛ قد يُحرم محبوباً، أو يبتلّى بفقد، أو يضيق عليه رزق، أو يظلم، أو يتعب في طاعةٍ لا يعرف الناس قدرها. لكن الآية تضع في قلبه وعداً: هناك قرّة عينٍ لم تُكشف بعد. ليست الدنيا آخر مجال للإنصاف، ولا آخر مجال للفرح، ولا آخر مجال للتعويض. في الآخرة يتجلى من فضل الله ما يجعل المؤمن يعلم أن شيئاً عمله لله لم يضع، وأن شيئاً تركه لله لم يكن خسارة.

وهذا المعنى لا ينبغي أن يُستعمل لتخدير المظلومين أو تسكين آلام الناس بلا إصلاح؛ فالقرآن يأمر بالعدل والعمل، لكنه في الوقت نفسه يمنح المؤمن أفقاً لا يستطيع الظلم الدنيوي أن يغلقه. قرّة العين المخبوءة لا تلغي مسؤوليتنا في الدنيا، لكنها تمنع الدنيا من أن تكون السقف الأخير للمعنى. ومن لم يؤمن بهذا

الأفق اختنق عند أول حرمانٍ كبير، لأنه لا يرى وراء ما فاتته شيئاً. أما المؤمن فيتألم، لكنه لا ينهار؛ لأنه يعلم أن عند الله مخبوءاً لا تراه العيون الآن.

ولعل من أجمل ما في الآية أنها لم تحدد قرة الأعين، لأنها لو حددت لانهصر الخيال في صورة. أما حين تُترك في عمومها المخبوء، فإنها تفتح الرجاء على اتساعٍ لا يُملك. كل نفس مؤمنة لها ما يناسبها من فضل الله، وكل قلب صادق سيجد من الكرامة ما يقر عينه، وكل تعبٍ لله سيجد ما يقابله من لطف الله. إن عدم التحديد هنا ليس نقص بيان، بل كمال تشويق؛ لأن بعض الحقائق تعظم إذا قيل لك: لا تستطيع أن تعلمها الآن.

ومع ذلك، لا بد أن يبقى القلب مؤدباً: لا يظن أن عمله هو ثمنٌ مكافئٌ للنعيم بمعنى المعاوضة التجارية المحضة، بل العمل سببٌ، والفضل من الله. فمهما قام العبد وأنفق ودعا، فإن توفيقه للعمل فضل، وقبول العمل فضل، ومضاعفة الجزاء فضل. وقوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لا يلغي هذا، بل يقرر عدل الله في أن العمل لا يضيع، مع بقاء الفضل أوسع من العمل. فالعبد يعمل قليلاً بعمرٍ محدود، والله يثيبه بكرمٍ لا تحده مقاييس العبد.

إن هذه الآية تصلح أن تكون عزاءً لكل من له عملٌ خفيٌّ لا يراه الناس. كل أمٍّ صابرة، وكل مريضٍ محتسب، وكل فقيرٍ عفيف، وكل شابٍ قاوم شهوةً في خلوة، وكل قائمٍ في الليل لم يسمع به أحد، وكل منفقٍ أخفى صدقته، وكل قلبٍ انكسر لله ثم لم يجد من البشر فهماً؛ كل هؤلاء داخلون في معنى الرجاء بحسب إيمانهم وعملهم. ما دام العمل لله، فليس خفياً على الله. وما دام مخبوءاً عند الله، فليس قليلاً ولو قلَّ في عين صاحبه.

ومن زاويةٍ أخرى، تربي الآية المؤمن على ألا يستعجل قرّة العين كلها في الدنيا. هناك قرّة عينٍ في الدنيا: في الصلاة، والطمأنينة، والأنس بالقرآن، وحلاوة الدعاء، وسكينة الرضا. لكن الآية تتحدث عن قرّةٍ أخرىٍ مخبوءة. فمن طلب أن تكون الدنيا جنّةً كاملةً تعجّل ما لم يجعل الله موضعه هنا. الدنيا دار ابتلاء، وفيها نفحات، لكنها ليست دار تمام القرّة. تمام القرّة هناك، حيث لا خوف، ولا فقد، ولا نومٌ يغالب المناجاة، ولا نفسٌ تخشى الرد، ولا عينٌ تبكي من ألم.

وهنا ندرك أن قيام الليل في الآية السابقة ليس مجرد عبادةٍ بين عبادات، بل تربيةً على الآخرة؛ لأن القائم في الليل يؤجل بعض راحته القريبة لأجل قرّةٍ بعيدة. يتدرب على أن لا تكون كل لذةٍ فورية، ولا كل رغبةٍ مستجابة، ولا كل راحةٍ مستحقّةً في وقتها. وهذا من أعظم معاني التزكية: أن يتعلم الإنسان تأجيل بعض لذته لله، حتى يُعطى من الله ما لا يُقاس بما ترك. ومن لم يتعلم هذا بقي عبدًا للحاضر؛ أما المؤمن فيعيش الحاضر بعينٍ على المخبوء.

ولذلك فإن قوله: (فَلَا تَعْلَمْ نَفْسٌ) ليس وعدًا بعيدًا فقط، بل قوةٌ تربويةٌ حاضرة. حين يهّم الجنب أن يلتصق بالمضجع، تذكره الآية بالمخبوء. حين تمسك النفس المال، تذكرها الآية بقرّة العين. حين يضعف العبد أمام طول الطريق، تقول له الآية: ما عند الله أعظم مما تتخيل. وحين لا يرى أحدٌ عمله، تقول له: إن الله أخفى لك ما لا تعلمه نفس.

ومن هنا تتكون اللبنة الحادية عشرة في معمار السورة: إن الله لا يضيع خفاء العبد الصادق، بل يقابله بخفاءٍ أعظم من فضله؛ فمن أخفى قيامه ودعائه ومجاهدته، أخفى الله له من قرّة الأعين ما لا تبلغه نفس.

والجزاء ليس وعدًا رمزيًا ولا تعزيةً نفسيةً مجردة، بل حقيقةً أخرويةً غيبيةً أعدّها الله لعباده المؤمنين، جزاءً بما كانوا يعملون. وبذلك يتحول قيام الليل والإنفاق والسجود من مشقةٍ منظورةٍ إلى استثمارٍ في غيبٍ كريم، ومن عملٍ محدودٍ في زمنٍ قصيرٍ إلى بابٍ مفتوحٍ على نعيمٍ لا تعلمه نفس.

## الفصل الثاني عشر

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا؟ الفصل الحاسم بين الطريقتين

قال الله تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٣﴾).

بعد أن عرضت السورة صورة المؤمنين الذين إذا ذُكِّروا بآيات الله خرّوا سجداً، ثم كشفت ما أخفي لهم من قرة أعين، جاءت هذه الآيات لتقرر قاعدةً فاصلةً لا تحتل المساومة: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ). إنها ليست مجرد مقارنة أخلاقية، بل إعلان عن عدالة الوجود في ميزان الله؛ فلا يمكن أن يستوي من استجاب للآيات بمن أعرض عنها، ولا من جافى جنبه المضجع بمن غرق في غفلته، ولا من دعا ربه خوفاً وطمعاً بمن نسي لقاء يومه، ولا من أنفق مما رزقه الله بمن استعمل الرزق في الفسق والجحود.

والسؤال هنا استنكاريٌّ يوقظ الفطرة: أيمن أن يتساوى الطريقتان؟ أيمن أن يكون الإيمان والفسق مجرد اختلاف في الذوق الشخصي، لا أثر له في المصير؟ أيمن أن يُختزل الدين في تجربةٍ داخليةٍ بلا فصلٍ حاسمٍ بين من أطاع ومن تمرد؟ إن السورة ترفض هذا الخلط؛ لأن التسوية بين المؤمن

والفاسق ليست رحمة، بل ظلم. هي ظلمٌ للمؤمن الذي جاهد وصبر وخاف وطمع وسجد وأنفق، وظلمٌ للحقيقة التي فرقت بين النور والظلمة، وظلمٌ للوجود إذا قيل له: لا فرق في النهاية بين من عاش لله ومن عاش لهواه.

وقوله: (كَانَ مُؤْمِنًا) و(كَانَ فَاسِقًا) يدل على صفةٍ غالبيةٍ ومسار حياة، لا على لحظةٍ عابرة. فالمؤمن هنا هو الذي غلب عليه الإيمان حتى صار وصفًا له، والفاسق هو الذي خرج عن طاعة الله وجعل الفسق سمتًا لطريقه. وليس معنى ذلك أن المؤمن لا يذنب أو أن الفاسق لا يعمل عملاً صالحاً في الظاهر أحياناً، بل المقصود الاتجاه الحاكم: إلى من ينتمي القلب؟ لأي أفق يعيش الإنسان؟ ما المبدأ الذي يقود عمله ومصيره؟

ثم يأتي الحكم القاطع: (لَا يَسْتَوُونَ). هذه الجملة القصيرة تحفظ الميزان من العبث. في الدنيا قد تختلط الصور؛ قد يبدو الفاسق أقوى، أغنى، أوسع نفوذاً، أكثر حضوراً في أعين الناس، وقد يبدو المؤمن ضعيفاً أو مجهولاً أو قليل الحيلة. لكن القرآن لا يقيس الاستواء بالمشهد العاجل، بل بالمصير وبحقيقة الطريق. هناك فروقٌ لا تظهر كاملةً في الدنيا، لكنها محفوظةٌ عند الله. وما لم يُكشف في ميزان الناس سيُكشف في ميزان الآخرة.

ثم تفصل الآيات المصيرين:

(أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى).

مرةً أخرى يجمع القرآن بين الإيمان والعمل الصالح. لا يكفي ادعاء الإيمان إذا لم يثمر عملاً، ولا ينفصل العمل الصالح عن أصل الإيمان. هؤلاء الذين آمنوا لم يبقَ إيمانهم فكرةً في الداخل، بل صار سجوداً وتسبيحاً وقياماً وإنفاقاً.

ولذلك كان لهم ﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾. والمأوى هو الموضع الذي يأوي إليه الإنسان فيسكن ويطمئن، بعد خوفٍ أو تعبٍ أو رحلة. وما أبدع هذا الجزاء بعد ذكر الجنوب التي تجافت عن المضاجع؛ تركوا مأوى الجسد المؤقت في الليل، فكان لهم مأوى الخلد. لم يجعلوا المضجع مأواهم النهائي، فأعطوا جنات المأوى.

والجنة هنا ليست فكرة رمزية عن الرضا الداخلي، بل دارٌ حقيقيةٌ أعدها الله لعباده المؤمنين، كما أخبر الوحي. وهي مأوى لأن الدنيا ليست مأوى كاملاً؛ الدنيا ممرٌ وابتلاء، فيها سكونٌ ممزوجٌ بالخوف، وراحةٌ ممزوجةٌ بالفقد، ولذةٌ ممزوجةٌ بالانقطاع. أما جنات المأوى فهي موضع القرار الآمن، حيث ينتهي تعب الطريق، وتظهر قرة الأعين، ويجد المؤمن أن كل قيامٍ وكل سجدةٍ وكل إنفاقٍ كان يسيراً أمام فضل الله.

ثم قال: ﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. والنزل ما يُهَيَأ للضيف عند قدومه، وفي هذا من التكریم ما فيه. كأن المؤمنين الذين كانوا غرباء عن الغفلة في الدنيا، الذين قاموا حين نام الناس، وأنفقوا حين أمسك الناس، وسجدوا حين استكبر الناس، يُستقبلون في الآخرة استقبال أهل الكرامة. والعمل هنا مرةً أخرى حاضر: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. فالآخرة ليست وعداً منفصلاً عن السلوك، بل حصاد طريقٍ كامل.

ثم يأتي المصير الآخر:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾.

التقابل مع ﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ واضح ومرّوع. هناك جنات المأوى، وهنا النار مأوى. الإنسان لا بد له من مأوى في النهاية، لكن أي مأوى؟ من جعل الله مأواه وملجأه في الدنيا، كان مأواه جنات الله في الآخرة. ومن خرج عن طاعة الله، وجعل هواه مأواه، انتهى إلى نارٍ تكون مأواه. واللفظ نفسه حين ينتقل من الجنة إلى النار يصنع صدمةً في النفس؛ لأن المأوى الذي يفترض أن يدل على السكن والأمان يصبح هنا موضع عذابٍ وحبس.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾.

هذه الآية تصور عذاباً مركباً: ألم النار، وألم محاولة الخروج، وألم الإعادة. ليسوا ساكنين في عذابٍ ثابتٍ فحسب، بل يعيشون رغبة الخلاص ثم انكسارها. كلما لاح في النفس طلب خروج، جاءت الإعادة لتقول: لا مهرب. وهذا يقابل طلبهم السابق: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾. هناك طلبوا الرجوع إلى الدنيا للعمل، فلم يُجابوا. وهنا يريدون الخروج من النار، فيُعادون فيها. من فوّت زمن الخروج من المعصية في الدنيا، قد يبتلى بمشهد لا خروج فيه من العاقبة.

ثم يقال لهم:

﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

مرةً أخرى يعود لفظ الذوق. كانوا يكذبون، والآن يذوقون. كانوا يتعاملون مع النار كخبرٍ بعيد، أو وعيدٍ غير واقع، أو رمزٍ يمكن تأويله، فإذا بها حقيقةٌ تُذاق. وهذا من أخطر ما في التكذيب بالغيب: أن المكذب لا يلغي الحقيقة، بل يلغي استعداد نفسه لها. النار لا تزول لأنه كذب بها، والآخرة لا تتأخر لأنه

سخر منها، والبعث لا يصبح مستحيلاً لأنه استبعده. إنما الذي يحدث أن الإنسان يدخل الحقيقة غير مستعدٍ لها، فيذوق ما كان يكذب به.

وهنا يتبين لماذا كان الإيمان بالغيب أصلاً في النجاة. ليس المطلوب أن تنتظر حتى ترى النار لتصدق، بل أن تصدق خبر الله عنها قبل أن تراها. فالذي ينتظر المعاينة يفوته الامتحان. وقد قالت السورة في مشهد المجرمين: (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا)، لكن بعد فوات النفع. وهنا يقال لهم: (الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ). فالمشكلة لم تكن نقص المشهد، بل رفض الخبر الصادق قبل المشهد.

إن هذه الآيات تؤكد أن القرآن لا يساوي بين الطرق باسم عاطفة رخوة. هناك رحمة واسعة، نعم؛ وهناك باب توبة مفتوح، نعم؛ وهناك عذاب أدنى لعلمهم يرجعون، نعم؛ لكن إذا انتهى الاختيار إلى إيمان وعمل، أو إلى فسق وتكذيب، فالمصيران لا يستويان. الرحمة لا تعني محو الفروق الأخلاقية، والمغفرة لا تعني أن الفسق لا عاقبة له، وسعة فضل الله لا تعني أن الإنسان يستطيع أن يعبث بالمهلة ثم يطالب بالتسوية.

ومن هنا يجب أن نفهم عدالة السؤال: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا). هذا السؤال ليس لإدانة الناس بأعيانهم من غير علم، بل لتثبيت الميزان في القلب. نحن لا نملك أن نحكم على خفايا المصائر، لكننا نؤمن أن الطريقين عند الله لا يستويان. وهذا الإيمان بالفرق يحمي الإنسان من تميع الحق؛ لأن من ظن أن كل الطرق تنتهي إلى النتيجة نفسها، فقد ألغى معنى الطاعة والمعصية، وجعل السجود والفسق سواءً في المأل. وهذا هدمٌ لمقام التكليف.

والسورة هنا تربي النفس على جدية الاختيار. الإنسان ليس كائنًا محايدًا يمرّ بالحياة بلا أثرٍ أبدي؛ كل اختيار يضعه في طريق، وكل طريق له مأوى. آية

تُذَكِّرُكَ: إما أن تسجد، وإما أن تعرض. ليلٌ يأتُيك: إما أن يكون كله غفلة، وإما أن يكون لك فيه نصيبٌ من الدعاء. رزقٌ يصل يدك: إما أن تحبسه كله لنفسك، وإما أن تنفق مما رزقك الله. ألمٌ يصيبك: إما أن يرجعك، وإما أن يزيدك قسوة. وهكذا تتكون الطريق قبل أن يظهر المصير.

ولعل من دقائق الآيات أن المؤمنين قيل فيهم: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أما الآخرون فقيل: ﴿فَسَقُوا﴾. فالفسق في أصله خروج؛ خروجٌ عن الطاعة، عن الصراط، عن مقتضى الفطرة، عن حق الربوبية. وكأن الفاسق لم يفقد عملاً بعينه فقط، بل خرج عن انتظامه في نظام العبودية. المؤمن ينتظم في السجود والتسبيح والدعاء والإنفاق، والفاسق يخرج من هذا الانتظام، فيصير مأواه النار التي لا يستطيع الخروج منها. من خرج عن الطاعة في الدنيا، مُنِعَ الخروج من العاقبة في الآخرة.

إن «المأوى» في الجانبين يستحق تأملاً طويلاً. الإنسان يبحث في الدنيا عن مأوى: بيت، وطن، علاقة، مال، مكانة، فكرة، عادة. لكنه قد يخطئ المأوى حين يجعل شيئاً من ذلك مقامه النهائي. سورة السجدة تقول: المأوى الحقيقي يتحدد عند النهاية. قد يكون بيتك واسعاً، لكن إن كان قلبك فاسقاً فأى مأوى ينتظرك؟ وقد يكون فراشك وثيراً، لكن إن كان لا يوقظك إلى الله فهل هو مأوى أم مخدر؟ وقد تكون فقيراً أو متعباً أو قليل الحظ في الدنيا، لكن إن كان طريقك إلى الله فلك جنات المأوى. ليست القضية أين تنام الليلة فقط، بل أين تأوي أبداً.

وهذه الآيات لا تهدف إلى زرع الخوف وحده، بل إلى تحرير الإنسان من خدعة التسوية. كثيرٌ من الناس لا يتركون الإيمان لأنهم يكرهون الحق

صراحة، بل لأنهم يضعفون أمام رؤية الفاسقين وهم ينجحون ظاهراً، أو يرون المؤمنين وهم يبتلون، فيقع في القلب سؤالٌ مضطرب: ما الفرق إذاً؟ فتأتي الآية: ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾. لا تقرأ الفرق من مشهد ناقص في الدنيا، بل من تمام المشهد في الآخرة. الدنيا ليست كل الحكاية، ومن قرأ نصف الحكاية حكم ظالماً.

إن المؤمن يحتاج إلى هذه الآية حين يشعر أن طاعته خفية، وأن قيامه لا يغير ميزان الدنيا، وأن إنفاقه ينقص ماله، وأن صبره لا يراه الناس. يحتاج أن يسمع: لا يستوون. لن تضيع سجدة، ولن يضيع قيام، ولن يضيع مالٌ خرج لله، ولن يستوي من خاف وطمع بمن كذب وفسق. والفسق يحتاج إلى هذه الآية أيضاً؛ لأنها تنقض عليه خداعه: لن تتجو لأن العقوبة تأخرت، ولن تكون النار وهماً لأنك لم ترها بعد، ولن يصبح التكذيب علماً لأنه شائع بين الناس. لا يستوون.

وهنا نرى أن السورة تبني ميزاناً ثلاثياً: الوحي يبين، والعمل يميز، والآخرة تفصل. في الدنيا قد يختلط الناس، لكن عند الله لا يختلط الطريقان. الوحي يقول لك ما الحق، والعمل يكشف موقعك من الحق، والآخرة تعلن النتيجة. ولذلك لا يصح أن يكتفي الإنسان بالإعجاب بالوحي، ولا بمجرد الانتماء العام إلى الإيمان، بل عليه أن ينظر: أين عملي؟ هل عملي عمل أهل جنات المأوى، أم عمل من نسي لقاء يومه؟

ومن رحمة القرآن أنه يذكر النار بعد الجنة، والجنة بعد النار، حتى يبقى القلب بين الخوف والرجاء. فلو ذكرت النار وحدها ربما يئس الضعيف، ولو ذكرت الجنة وحدها ربما اغتر الغافل. أما سورة السجدة فقد وضعت قبل ذلك

المؤمنين بين خوفٍ وطمع، ثم جعلت القارئ يرى المصيرين: قرّة أعين وجنات مأوى، أو نارٌ وذوق عذاب. فكأنها تربي القلب بالمشهدين معًا: اخف، واطمع؛ اعمل، ولا تغتر؛ ارج، ولا تأمن.

وهذه الآيات كذلك تردّ على نزعةٍ معاصرةٍ تريد أن تجعل الإيمان والفسق مجرد حالتين نفسيّتين بلا مصير، أو تجعل الجنة والنار رموزًا داخليةً للسلام والاضطراب. نعم، للطاعة طمأنينة في الدنيا، وللمعصية ضيقٌ في القلب، لكن الآيات تتحدث عن مصائر حقيقية: جنات المأوى، والنار، والإعادة فيها، وذوق عذابها. ومن الوفاء للوحي أن نثبت ما أثبتته، لا أن نخفف حقائقه حتى توافق ذوق الإنسان الحديث. القرآن لا يستأذن أهواءنا في الغيب؛ بل يطلب منا أن نؤمن بالغيب لأنه من عند الله.

وفي نهاية هذا الفصل تتكون اللبنة الثانية عشرة من معمار السورة: ليست الحياة طريقًا واحدًا بأسماء متعددة، بل طريقان لا يستويان: إيمانٌ يثمر عملاً صالحًا، وفسقٌ يثمر تكذيبًا وعاقبة. للمؤمنين جنات المأوى نزلًا بما كانوا يعملون، وللفاسقين نارٌ يريدون الخروج منها فيعادون فيها، ويذوقون ما كانوا به يكذبون. ومن أراد أن يفهم سورة السجدة فليحفظ هذا الفصل الحاسم: لا يستوي الساجد والناكس، ولا القائم في الليل والغافل عن اللقاء، ولا المنفق مما رزقه الله والمكذب بعذاب النار. فالعدل الإلهي يأبى التسوية بين من جعل حياته استجابةً للآيات، ومن جعل عمره إعراضًا عنها.

## الفصل الثالث عشر

### موسى والكتاب: وحدة الهداية عبر الرسائل

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

بعد أن فرقت السورة بين المؤمن والفاسق، وبين جنات المأوى والنار، وبين قرة الأعين وذوق العذاب، عادت إلى خطٍّ آخر من خطوط اليقين: خطَّ الرسائل. فهي لا تترك الوحي القرآني كأنه حادثة منفردة في التاريخ، ولا تجعل رسالة محمد ﷺ كأنها مقطوعة عن موكب الهداية، بل تربطها بموسى عليه السلام والكتاب الذي آتاه الله، لتؤكد أن الهدى ليس ومضة عابرة، بل سنة ربانية ممتدة، وأن الإنسان لم يُترك بلا بيان، وأن الوحي في جوهره سلسلة من الرحمة والهداية والإنذار.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾.

هذا الاستحضار لموسى عليه السلام بعد كل ما سبق يحمل معنى التثبيت. لقد بدأ السورة بـ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾، ثم ردّ على من قالوا: ﴿افْتَرَاهُ﴾، وهنا يذكر بأن إيتاء الكتاب لموسى عليه السلام كان سابقاً في التاريخ، وأن نزول الكتب على الرسل ليس أمراً مستنكراً ولا غريباً عن سنن الله في هداية البشر. فمن

استغرب أن ينزل كتابٌ على محمد ﷺ فليتذكر أن الله قد آتى موسى الكتاب من قبل، وأن الهداية بالوحي ليست بدعاً من الأمر.

وفي ذكر موسى عليه السلام خصوصاً دلالةً قوية؛ لأنه نبيٌّ عظيمٌ ارتبطت رسالته بالمواجهة، وبالنجاة، وببناء الأمة، وبالكتاب، وبالصبر على أذى قومه، وبالعبور من الاستضعاف إلى التكوين. وسورة السجدة، وهي تبني الإنسان الساجد، تشير إلى هذا النموذج الرسالي لنقول إن الوحي لا يصنع أفراداً منعزلين فقط، بل يصنع أمماً تهتدي، ويصنع قياداتٍ تصبر وتوقن، ويصنع مساراً تاريخياً تتوارث فيه الهداية عبر الكتب والرسل.

ثم قال:

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ).

هذه الجملة وقع فيها خلافتٌ في عود الضمير، وقد ذكر أهل التفسير وجوهاً، منها أن المراد لقاء موسى، أو لقاء الكتاب، أو لقاء الله، والمعنى العام في سياق السورة يدور على تثبيت الرسول ﷺ ونفي الشك والاضطراب. والمقصود في قراءتنا هنا أن السورة تريد أن تنزع المِرية من قلب المتلقي أمام اتصال الوحي واتحاد طريق الهداية؛ فلا يكن في القلب اضطرابٌ من أن الله آتى موسى الكتاب كما أنزل القرآن، ولا من أن الرسالات يصدق بعضها بعضاً في أصل الهدى، ولا من أن لقاء الحق الموعود واقعٌ لا ريب فيه.

و«المِرية» ليست مجرد سؤالٍ عابر، بل نوعٌ من الشك الممزوج بالاضطراب والمجادلة. وسورة السجدة منذ أولها تحارب هذا الاضطراب

من جذوره: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ثم ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، ثم هنا: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ﴾. كأن السورة تُحاصر الريب من جهاته كلها؛ في مصدر القرآن، وفي صدق الرسالة، وفي البعث واللقاء، وفي امتداد الوحي عبر التاريخ. فالمؤمن لا يبني قلبه على ظنونٍ مهتزة، بل على يقينٍ موصولٍ بالكتاب وبسنن الله في رسله.

ثم قال:

﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

فالكتاب في جوهره هدى. وهذه الكلمة تُعيدنا إلى وظيفة الوحي الأولى: ليس الوحي مادةً للتفاخر، ولا وثيقةً للانتماء القومي، ولا رمزاً ثقافياً جامداً، بل هدى. فإذا تحوّل الكتاب في يد قومٍ إلى شيءٍ لا يهديهم، فقد تعطلت وظيفته فيهم، لا لعجزٍ في الكتاب من جهة أصله، بل لخللٍ في التلقي والعمل. فالكتاب لا يُعطى ليزين الذاكرة الجماعية، بل ليقود الحياة. وهذا معنى يجب أن نخاف منه كل أمةٍ ورثت كتاباً أو نسبت نفسها إلى وحي: أن يتحول الوحي عندها من هدىٍّ عامِلٍ إلى عنوانٍ موروث.

وذكر بني إسرائيل هنا لا يأتي لمجرد سردٍ تاريخي، بل ليقرر أن الأمم تُصنع بالهدى ثم تُبتلى بموقفها منه. لقد جعل الله كتاب موسى هدىً لهم، فمن أخذ بالهدى اهتدى، ومن أعرض ضلّ، ومن صبر ويقن رُفع إلى الإمامة كما ستقول الآية التالية. فالكتاب وحده لا ينفع من لم يستجب له؛ إنه نور، لكن العين إذا أغمضت لا تنتفع بالنور. وهذا يردنا إلى قلب السورة: ﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ في مقابل ﴿ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾.

إن في هذه الآية درسًا للأمة المحمدية أيضًا؛ فالقرآن هدى، لكن الانتفاع به مشروطٌ بالتلقي السليم والعمل. فإذا قرأناه دون أن يسجد له القلب، ودون أن يجافي الجنب شيئًا من مضجع الغفلة، ودون أن يتحول الرزق إلى إنفاق، فقد نكون حملنا الكتاب اسمًا ولم نجعله هدىً واقعيًا. والآية، بذكر كتاب موسى، تفتح لنا مرآة التاريخ: ليست المشكلة أن ينزل الكتاب، بل أن يبقى الناس أوفياءً لهدى الكتاب بعد نزوله.

ومن زاوية البناء العام للسورة، تأتي هذه الآية بعد بيان المصيرين لتقول: إن طريق الإيمان والعمل الصالح ليس طريقًا بلا سابقة، بل هو طريق الرسائل كلها. الأنبياء جاؤوا بالكتاب والهدى، والأمم امتحنت بالصبر واليقين، والناس انقسموا في النهاية بين مستجيب ومعرض. فالسورة لا تخاطب الإنسان الفرد وحده، بل تضعه داخل تاريخ الهداية: أنت لست أول من يُدعى إلى السجود، ولا أول من يُمتحن بالآيات، ولا أول من يُطلب منه الصبر واليقين؛ هذا طريقٌ قديمٌ بقدر الرسائل.

وفي هذا تثبيتٌ عميقٌ للنبي ﷺ وللمؤمنين معه. فالتكذيب الذي واجهوه ليس جديدًا، واتهام الوحي ليس جديدًا، ومجادلة البعث ليست جديدة، والصبر على طريق الهدى ليس جديدًا. لقد أتى الله موسى الكتاب، وجعله هدى، ثم مضت السنن في قومه كما تمضي في غيرهم. فليست العبرة أن يتعجب المؤمن من مقاومة الناس للحق، بل أن يعرف أن الهدى يحتاج إلى صبر، وأن الإمامة لا تأتي إلا بعد امتحان.

ولعلنا إذا ربطنا هذه الآية ببداية السورة رأينا معمارًا واضحًا: القرآن تنزيل الكتاب لا ريب فيه، وكتاب موسى هدى لبني إسرائيل. هذا الربط لا يساوي

بين الشرائع في كل تفاصيلها، ولا يلغي خصوصية القرآن وهيمنته وخاتمية رسالة محمد ﷺ، لكنه يقرر وحدة الأصل: أن الله يهدي عباده بالوحي، وأن الكتب جاءت لتخرج الناس من ضلالهم إلى هدى ربهم. ومن ثم فإن رفض القرآن ليس رفضاً لنصٍ منفرد، بل رفضٌ لمنهج الله في هداية الإنسان عبر الوحي.

ومما ينبغي التنبيه له أن السورة لم تذكر هنا من قصة موسى عليه السلام تفاصيل المواجهة مع فرعون، ولا العصا، ولا البحر، ولا التيه، بل ذكرت الكتاب والهدى. وهذا الاختيار مقصودٌ في سياق السورة؛ لأنها سورة بناء يقين بالوحي والآخرة، فاستحضرت من موسى ما يخدم هذا المقصد: إيتاء الكتاب وجعله هدى. فليست الغاية هنا سرد القصة، بل إدخال الرسالة المحمدية في نسق الهداية الربانية الممتدة.

ومن هنا تتكون اللبنة الثالثة عشرة في معمار السورة: الوحي ليس حدثاً معزولاً، بل سنةً ربانيةً في هداية البشر. كما أنزل الله القرآن لا ريب فيه من رب العالمين، فقد أتى موسى الكتاب وجعله هدىً لبني إسرائيل. فلا ينبغي للمؤمن أن يكون في مريةٍ من طريق الهدى، ولا أن يضطرب أمام تكذيب المكذبين، فهذه سنن الرسالات: كتابٌ يُنزل، وقومٌ يُدعون، ومؤمنون يصبرون، ومعرضون يفسقون، ثم يفصل الله بين الطريقين. ومن فهم هذا دخل في السجدة الكبرى للتاريخ كله؛ حيث لا تكون الهداية اختراعاً بشرياً، بل فضلاً إلهياً يتنزل على الناس ليعيدهم إلى ربهم.

## الفصل الرابع عشر

### الإمامة بالصبر واليقين

قال الله تعالى:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ).

بعد ذكر موسى والكتاب والهدى لبني إسرائيل، تنتقل السورة إلى ثمرة من أعظم ثمرات الهداية حين تعمل في النفوس والجماعات: الإمامة. لكنها ليست إمامة السلطان المجرد، ولا إمامة الشهرة، ولا إمامة الغلبة، بل إمامة الهداية: (أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا). وهذه العبارة وحدها تقلب مقاييس القيادة في الوعي الإنساني؛ فالقيادة في ميزان القرآن لا تقاس بمدى القدرة على التأثير في الناس فقط، بل بوجهة هذا التأثير: هل يهدي إلى أمر الله أم يقود إلى الهوى؟ هل يرفع الناس إلى اليقين أم يسوقهم إلى الغفلة؟ هل يصنع فيهم السجود أم يربي فيهم الاستكبار؟

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً).

فالإمامة هنا جعل من الله، لا مجرد صناعة بشرية. صحيح أن لها أسباباً من صبرٍ ويقين، كما ستبين الآية، لكنها في النهاية فضلٌ واختيارٌ وتوفيق. وهذا يطهر مفهوم القيادة من الادعاء؛ فمن أراد أن يهدي الناس بأمر الله فلا يبدأ بتزكية نفسه، بل يبدأ بتحقيق شروط الطريق: الصبر واليقين. أما من طلب

الإمامة للشهرة أو السيطرة أو الامتلاء بالنفس، فقد يكون إمامًا في الظاهر، لكنه ليس من أئمة الهدى الذين تشير إليهم الآية.

وقوله: (مِنْهُمْ) يدل على أن الأمة التي أُعطيت الكتاب لم يكن كل أفرادها في مقام الإمامة، بل جعل الله من بينهم أئمة. فالكتاب يفتح الباب، لكن الصبر واليقين هما اللذان يرفعان بعض أهلهم إلى مقام الهداية. قد ينتمي كثيرون إلى الكتاب، وقد يحفظه بعضهم، وقد يتحدث باسمه آخرون، لكن الإمامة الحقيقية لا تُنال بمجرد الانتساب، بل بمجاهدةٍ طويلةٍ تجعل صاحبها أهلاً لأن يكون طريقاً لغيره.

ثم قال:

(يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا).

ليسوا يهدون بأهوائهم، ولا بذوقهم، ولا بمصالحهم، ولا بقوة خطابهم وحدها، بل (بِأَمْرِنَا). وهذا قيدٌ حاسم. فقد يكون الإنسان مؤثراً، لكنه لا يهدي بأمر الله؛ وقد يكون له أتباع، لكنه يقودهم إلى نفسه؛ وقد يكون فصيحاً، لكنه يزين لهم الغفلة؛ وقد يكون قوي الشخصية، لكنه لا يعرف طريق الوحي. أما أئمة الهدى فهم الذين يجعلون أمر الله هو الأصل، ويقودون الناس إليه لا إلى ذواتهم، ويجعلون الكتاب هدًى عاماً لا شعاراً مرفوعاً.

و«بِأَمْرِنَا» تحمل معنى الإذن والهداية والمنهج. فالإمام القرآني لا يخترع الهداية من عنده، بل يتلقاها من الوحي، ثم يصبر على حملها، ويوقن بآيات الله، فيصير واسطة بيانٍ لا مصدرًا مستقلاً. وهذا يربط الإمامة ببداية السورة:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ). فمن لم يخضع للتنزيل لا يستطيع أن يهدي بأمر الله، ومن لم يسجد للآيات لا ينبغي أن يتصدر باسمها.

ثم تبين الآية سبب هذا الجعل:

(لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ).

هنا تكشف السورة قانون الإمامة: الصبر واليقين. ليس الذكاء وحده، ولا البلاغة وحدها، ولا الحماسة وحدها، ولا الثقافة وحدها، بل صبرٌ و يقين. الصبر يثبت الإنسان في الطريق حين يطول، واليقين يحفظ وجهته حين تكثر الشبهات. الصبر يمنع من الانهيار أمام الألم، واليقين يمنع من الذوبان أمام الريب. الصبر يعطيه قوة الاحتمال، واليقين يعطيه نور البصيرة. ومن اجتمع له هذان صار صالحًا لأن يهدي غيره، لأنه لم يعد يتحرك بردود الفعل ولا بالأهواء العابرة.

والصبر في سياق السورة واسع: صبرٌ على التكذيب، وصبرٌ على التذكير حين يُعرض الناس، وصبرٌ على قيام الليل، وصبرٌ على ترك الاستكبار، وصبرٌ على الإنفاق، وصبرٌ على انتظار الفتح، وصبرٌ على ألا يرى الإنسان كل النتائج في زمنه. فالذي يريد أن يكون من أهل الهداية لا بد أن يتحمل ثقل الطريق. واليقين كذلك واسع: يقينٌ بتنزيل الكتاب، ويقينٌ بالخلق والبعث، ويقينٌ بلقاء الرب، ويقينٌ بالجنة والنار، ويقينٌ بأن الله يفصل يوم القيامة فيما اختلف فيه الناس.

ومن بديع الآية أنها قالت: (لَمَّا صَبَرُوا) بالفعل الماضي الدال على تحقق الصبر، ثم قالت: (وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) بما يدل على استمرار اليقين

ورسوخه. فكأن الصبر امتحانٌ يثبت في الواقع، واليقين حالةٌ مستمرةٌ تسند هذا الصبر. فالإنسان لا يصبر صبراً عظيماً بلا يقين، ولا يصدق يقينه إذا لم يظهر في الصبر. ومن ادعى اليقين ثم انهار عند أول ابتلاء، فيقينه يحتاج إلى ترسيخ. ومن صبر بغير نورٍ قد يتحول صبره إلى قسوةٍ أو عناد. أما الصبر القرآني فهو صبرٌ مبصر، واليقين القرآني يقينٌ عامل.

وهنا نرى علاقة هذه الآية بآية قيام الليل. فالمؤمنون تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأن عندهم يقيناً، ويحتاجون إلى صبرٍ على مفارقة الراحة. فإذا تكرّر هذا في الحياة، صار المؤمن مهياً لمقامٍ أعلى: أن يهدي غيره. فالإمامة تبدأ من الخلوة قبل أن تظهر في العلانية؛ تبدأ من القدرة على قيادة النفس قبل قيادة الناس. من لم يقدر أن يقود جنبه عن المضجع، كيف يقود أمةً إلى الله؟ ومن لم يقدر أن يكسر كبره في السجود، كيف يكسر كبر الناس بالحق؟ ومن لم يملك يقيناً يوقظه في الليل، كيف يمنح اليقين لمن حوله؟

إن هذه الآية تهدم مفهوم الإمامة السطحية. ليس الإمام في القرآن من يكثر أتباعه بالضرورة، ولا من يعلو صوته، ولا من يملك أدوات التأثير الحديثة، بل من يهدي بأمر الله بعد صبرٍ و يقين. قد يكون قليل الظهور، لكنه عند الله من أئمة الهدى. وقد يكون مشهوراً واسع المنبر، لكنه إن لم يهد بأمر الله، وإن لم يصبر، وإن لم يوقن، فهو في خطرٍ عظيم. الميزان ليس اتساع الجمهور، بل صدق الوجهة.

ثم تأتي الآية التالية:

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ).

بعد ذكر الإمامة والهداية، يأتي الفصل. لأن التاريخ ليس دائماً واضحاً في أعين الناس؛ قد يختلط الحق بالباطل، وقد يختلف الناس في الرسل والكتب، وقد يزعم كل فريق أنه على هدى، وقد يتنازع بنو إسرائيل وغيرهم، وقد يشتد الخلاف حتى يعجز البشر عن حسمه حسماً عادلاً كاملاً. لكن الله يفصل يوم القيامة. وهذا الفصل لا يترك الحقيقة معلقةً إلى الأبد، ولا يسمح للباطل أن يبقى مستتراً خلف جده. في النهاية هناك قضاء إلهي يكشف ما كان الناس فيه يختلفون.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ فيه تأكيدٌ وطمأنة. ليس الفصل للناس، ولا للأهواء، ولا للمنتصرين المؤقتين في التاريخ، بل لربك. وهذا يعزي المؤمنين الذين قد يُظلمون في ساحة الجدل، أو يُتهمون، أو تُشوّه دعوتهم، أو يرون أهل الباطل يرفعون رايات كثيرة. لا تضطربوا؛ الفصل ليس الآن دائماً، وليس بأيديهم، بل يوم القيامة عند ربك. وهذا لا يعني ترك البيان في الدنيا، بل يعني أن البيان الدنيوي ليس آخر الفصل.

والاختلاف هنا ليس مجرد تنوع محمود، بل اختلاف في الحق والباطل، في الاستجابة والإعراض، في الإيمان والفسق. والسورة منذ أولها تتعامل مع اختلافات كبرى: هل القرآن تنزيل أم افتراء؟ هل البعث حق أم مستبعد؟ هل الموت نهاية أم رجوع؟ هل المؤمن كالفاسق؟ هل الآيات تُسجد أم يُعرض عنها؟ فكان لابد أن يُختم هذا المقطع بالتأكيد أن الله يفصل. وهذا يعيد الطمأنينة إلى القلب: ليست الحقيقة ضائعة لأن الناس اختلفوا فيها.

إن الجمع بين الإمامة والفصل مهم جداً. أئمة الهدى يعملون في الدنيا، لكنهم لا يملكون الفصل النهائي بين الناس. يهتدون ويهدون، يصبرون ويوقنون،

يبينون ويحتملون، ثم يتركون الحكم الأخير لله. وهذا يحمي الداعية والمصلح من الغرور ومن اليأس معاً؛ من الغرور لأنه ليس صاحب الفصل النهائي، ومن اليأس لأنه يعلم أن الله سيفصل ولو طال الاختلاف. عليه أن يهدي بأمر الله، لا أن يستعجل نتائج الله.

وهذه الآية كذلك تعلمنا أن الصبر لا يكون فقط على الألم، بل على بقاء بعض الحقائق غير محسومة في أعين الناس زمناً طويلاً. قد ترى باطلاً ينتفخ، أو شبهات تنتشر، أو صدقاً يُساء فهمه، فتحتاج إلى يقين بأن الله يفصل. ومن لم يؤمن بالفصل الأخروي ربما استعجل، أو تنازل، أو قسا، أو انهيار. أما المؤمن فيصبر، لأن عنده يقيناً بأن كل اختلافٍ سيُردّ إلى حكم العليم العدل.

ومن هنا يظهر ارتباط هذه الآيات بآخر السورة: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾. فالصبر واليقين يصنعان قدرة الانتظار. وأئمة الهدى ليسوا متعجلين، لأنهم يعلمون أن الله مواعيد، وأن الفصل آتٍ، وأن الهداية ليست صناعةً متوترةً تستمد قيمتها من النتائج الفورية. من أيقن بآيات الله استطاع أن ينتظر دون أن يتوقف، وأن يعمل دون أن يرى كل الثمرات.

إن مفهوم الإمامة هنا يمكن أن يُقرأ على مستوى الفرد أيضاً. كل إنسانٍ قد يكون إماماً بقدر ما في محيطه: في بيته، في أسرته، في عمله، في كلمته، في أثره. وليس المطلوب أن يطلب الرياسة، بل أن يتحقق بالصبر واليقين حتى يصير وجوده هادياً. قد تهدي أبناءك بصبرك، أو أصدقاءك بثباتك، أو قراءك بصدقك، أو مجتمعك بكلمة لا تبيع فيها الوحي للهوى. الإمامة ليست منصباً دائماً؛ إنها أثر هدايةٍ يصدر عن قلبٍ صبر وأيقن.

لكن الخطر أن يطلب الإنسان أثر الإمامة دون أن يدفع ثمن الصبر واليقين. يريد أن يؤثر سريعاً، وأن يُسمع فوراً، وأن يُصدّق بلا ابتلاء، وأن ينجح بلا مقاومة. وسورة السجدة تقول: ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾. لا إمامة هدى بلا زمنٍ من التكوين. لا قيادة للناس قبل قيادة النفس. لا نور في العلانية بلا وقودٍ في الخفاء. لا كلمة تبني اليقين في الآخرين إذا كان صاحبها مهزوراً عند أول شبهة.

وفي هذه الآية أيضاً سرٌّ تربويٌّ للمصلحين: الهداية لا تكون بأمر الله إلا إذا كان الداعي نفسه محكوماً بأمر الله. من أراد أن يهدي الناس وهو متحرر من الوحي، فإنه يقودهم إلى نفسه، ولو استعمل ألفاظاً دينية. ومن أراد أن يصلح الواقع وهو فاقد لليقين، قد ينقل إلى الناس اضطرابه لا هدايته. لذلك كان اليقين شرطاً؛ لأن فاقد اليقين قد يتقن الكلام عن الهدى، لكنه لا يبعث السكينة. وأما الصابر الموقن، فكلمته تحمل من ثباته ما لا تحمله البلاغة وحدها.

ومن زاوية أخرى، فإن الإمامة بالصبر واليقين تقابل الفسق والتكذيب في الآيات السابقة. الفاسق خرج عن الطاعة، أما الإمام فيدخل الناس في الهداية. الفاسق مأواه النار، أما الإمام فيدل على جنات المأوى. الفاسق يكذب بالعذاب، أما الإمام يوقن بالآيات. الفاسق يريد الخروج بعد الفوات، أما الإمام يصبر في الطريق قبل الوصول. وهكذا لا تستوي حتى الآثار الاجتماعية للطريقين: الإيمان يصنع هداة، والفسق يصنع مُضِلِّين أو غافلين.

ومن هنا تتكون اللبنة الرابعة عشرة في معمار السورة: الهداية حين تستقر في أمةٍ أو فردٍ لا تثمر مجرد نجاةٍ شخصية، بل قد تثمر إمامةً في الهدى، لكن هذه الإمامة لا تُنال بالذكاء ولا بالظهور ولا بالانتساب

وحده، بل بالصبر واليقين. ومن صبر وأيقن صار قادرًا أن يهدي بأمر الله، لا بأمر نفسه. ومع ذلك يبقى الفصل النهائي لله يوم القيامة فيما اختلف فيه الناس، فيعمل المؤمن ولا يغتر، ويصبر ولا ييأس، ويهدي ولا يدّعي امتلاك النهايات، لأن الحق عند الله، والفصل عند الله، والموعود عند الله.

## الفصل الخامس عشر

### السنن المرئية والآيات المنسية

قال الله تعالى:

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ).  
 ﴿١﴾

بعد أن قررت السورة أن الله يفصل بين الناس يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، عادت إلى مشهد الدنيا مرة أخرى، ولكن لا من جهة الوحي المتلو فقط، بل من جهة الآيات المبتوثة في التاريخ والطبيعة؛ كأنها تقول للإنسان: إن الهداية لا تأتيك من المصحف وحده، وإن كان هو الأصل الأعلى، بل تأتيك كذلك من مساكن الهالكين، ومن الأرض الجرز حين يسوق الله إليها الماء، ومن حركة السنن التي تمر أمامك كل يوم. غير أن المشكلة ليست في قلة الآيات، بل في موت السمع والبصر حين يتحولان إلى أدوات مشاهدة بلا اعتبار.

تبدأ الآية الأولى بسؤالٍ تقريريٍّ توقيضي:

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ).

وهذا التعبير دقيق؛ لم يقل: أو لم يعلموا فقط، بل قال: (يَهْدِ لَهُمْ)، كأن ما وقع في الأمم السابقة ليس مجرد معلومة تاريخية، بل دليل هادٍ، وطريق إلى الفهم،

وعلازمةً موضوعةً لمن أراد أن يعتبر. فالتاريخ في القرآن ليس أرشيفًا للأحداث، ولا سردًا للوقائع الماضية، بل خزان هداية. ومن قرأ التاريخ بلا هداية رأى الدول تقوم وتسقط، والقرون تمضي، والمساكن تخرب، لكنه لم ير السنن التي تعمل وراء ذلك كله. أما القرآن فيريد من التاريخ أن يكون واعظًا لا متحفًا، وبصيرةً لا ذاكرةً باردة.

(كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ).

إنها كثرةٌ لا يراد منها العدّ، بل الاعتبار. كم من قرونٍ ظنت أنها باقية، وكم من جماعاتٍ حسبت أن عمرانها يحميها، وكم من قوىٍ رأت نفسها فوق الإنذار، ثم صارت خبرًا بعد أن كانت حضورًا. إن الهلاك في القرآن ليس حادثهً عبثيةً، بل نهاية مسارٍ حين يتراكم الإعراض والفسق والتكذيب. وما دام الله قد أهلك من قبلهم قرونًا، فما الذي يجعل اللاحقين يتوهمون أنهم مستثنون من سنن الله؟ أهو مالهم؟ أهو عمرانهم؟ أهو طول أملهم؟ أهو أنهم لم يروا العذاب الأكبر بعد؟

ثم تأتي الصورة التي تقرب التاريخ إلى الحس:

(يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ).

وهذا من أبلغ التصوير. ليس الحديث عن أممٍ مجهولةٍ في فراغ، بل عن مساكن قائمةٍ أو آثارٍ يمرّ بها الناس ويمشون فيها. المساكن التي كانت يومًا عامرةً بالأصوات، والأمانى، والمجالس، والتجارة، والضحك، والخصومات، والخطط، صارت موضع عبور. كان أهلها يقولون كما يقول

الناس في كل زمن: غداً نفعل، وغداً نبني، وغداً نتمتع، وغداً نؤجل التوبة. ثم صار غدهم أثراً يمرّ عليه غيرهم.

والمشي في مساكن الهالكين يحمل مفارقةً عجيبة: الأقدام الحية تمشي فوق ذاكرة الموت. الإنسان يمشي في موضعٍ كان لغيره، ويسكن في أرضٍ حملت أقواماً قبله، ويرى آثاراً تقول له بصمت: نحن كنا هنا، ثم مضينا. فكيف لا يسمع؟ كيف لا يتذكر؟ كيف يمرّ على الخراب ولا يسأل: ما الذي أبقى الأثر وأذهب صاحبه؟ كيف يرى العمران القديم ولا يفكر أن عمرانه سيصير يوماً موضع سؤالٍ لغيره؟

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ).

ليست آيةً واحدة، بل آيات. في الهلاك آية، وفي بقاء المساكن بعد أهلها آية، وفي مشي اللاحقين فيها آية، وفي تكرار السنة آية، وفي عجز القوة عن منع المصير آية. لكن الآيات لا تنطق لمن لا يسمع. ولذلك ختمت الآية بقوله:

(أَفَلَا يَسْمَعُونَ).

والختم بالسمع هنا لافت، مع أن المشهد يبدو بصرياً: مساكن يمشون فيها. ولكن التاريخ لا يكفي أن يُرى، بل يحتاج إلى خطابٍ يفسره، وإلى وحي يكشف معناه. قد ترى الأطلال بعينك، لكنك لا تسمع رسالتها إلا إذا كان فيك سمع القلب. فالأطلال تتكلم بصمت، والقرآن يترجم كلامها: لا تغتروا، لا تعرضوا، لا تظنوا أن الإهمال إهمال، لا تنسوا لقاء يومكم هذا. ومن لم يسمع هذا المعنى من آثار التاريخ، فقد مرّ على الآية كما يمرّ الأعمى على النور.

ثم تنتقل السورة من آية التاريخ إلى آية الحياة:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ).

بعد مساكن الهالكين تأتي الأرض الجرز. الأولى صورة نهاية العمران حين ينقطع عن الهدى، والثانية صورة بداية الحياة حين يأتيها الماء بأمر الله. والجرز هي الأرض اليابسة التي لا نبات فيها، كأنها فقدت مظهر الحياة، ثم يسوق الله إليها الماء. والتعبير بـ(نَسُوقُ) يحمل معنى التدبير؛ الماء لا يتحرك في الرؤية القرآنية كعنصرٍ ماديٍّ أعمى فقط، بل يساق بتدبير الله. قد نعرف قوانين المطر والجريان والسحب، لكن المعرفة بالأسباب لا ينبغي أن تحجبنا عن مسير الأسباب.

إن هذه الآية تفتح أمام الإنسان باباً إلى فهم البعث أيضاً. فالأرض الجرز، اليابسة، الخالية من النبات، إذا جاءها الماء أخرج الله بها زرعاً. أليس في هذا مشهدٌ قريبٌ من معنى الإحياء بعد الموت؟ أليس الذي يخرج الحياة من أرضٍ قاحلةٍ قادراً على أن يخرج الناس من قبورهم؟ أليس الذي يسوق الماء إلى الأرض الميتة هو الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض؟ وهنا تتصل الآية بما سبق من إنكار البعث: (أَنذَا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ). نعم، تضلون في الأرض في نظركم، لكن الأرض نفسها التي تتوهمون أنها نهاية الأجساد تشهد كل يوم أن الحياة تخرج من موضع اليبس بأمر الله.

(فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا).

الإخراج هنا فعل إلهي، والماء سببٌ من الأسباب. وهذا هو التوازن القرآني العميق: لا ينفي السبب، لكنه لا يؤلّفه. يذكر الماء، ثم يقول: (فَنُخْرِجُ). الماء لا يخلق من ذاته، والأرض لا تمنح الحياة استقلالاً، والبذرة ليست إلهاً صغيراً، بل كل ذلك داخل تدبير الله. ومن هنا يتعلم المؤمن أن يرى الله في

انتظام السنن لا في خرقها فقط؛ فليس العجب أن تقع المعجزة الخارقة وحدها، بل العجب أن تتكرر آية الزرع حتى يعتادها الناس فيفقدون دهشتها.

ثم قال:

﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾.

هنا تنتقل الآية من مشهد الإحياء إلى نعمة الرزق. الزرع ليس منظرًا جميلًا فقط، بل حياةً للأنعام والناس. الأنعام تأكل، والناس يأكلون، وتتصل دورة الحياة كلها بالماء الذي ساقه الله. وهذا يردّ الإنسان إلى فقره: أنت لا تعيش باستقلالك، ولا بقوتك المجردة، بل بسلسلةٍ طويلةٍ من النعم التي لا تملك أصلها. ماءٌ يُساق، وأرضٌ تُثبت، وزرعٌ يخرج، وأنعامٌ ترعى، وإنسانٌ يأكل، ثم بعد ذلك قد ينسى الرازق. ولذلك كان من المناسب أن تختم الآية:

﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

هنا البصر هو المطلوب؛ لأن الآية مرئيةٌ متكررةٌ أمام العين. لكن كما أن السمع قد يتعطل مع وجود الصوت، فإن البصر قد يتعطل مع وجود المشهد. يرى الإنسان الزرع كل يوم، ويأكل من أثر الماء كل يوم، لكنه لا يبصر النعمة. وإذا لم يبصر النعمة لم يشكر، وإذا لم يشكر عاد إلى قوله السابق: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾. فالآية تعيدنا إلى أمانة الأبصار؛ ماذا تفعل عيناك بالمشهد؟ هل ترى طعامًا فقط، أم ترى رزقًا؟ هل ترى ماءً فقط، أم ترى تدبيرًا؟ هل ترى أرضًا فقط، أم ترى آيةً على الإحياء؟

إن الجمع بين ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ و﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ يعيد إلى الواجهة ثلاثية السمع والبصر والفؤاد التي ذكرتها السورة في خلق الإنسان. لقد أعطاكم السمع

والأبصار والأفئدة، وها هي الآيات تأتيكم مسموعةً ومرئيةً. التاريخ يحتاج إلى سمعٍ يتلقى العبرة، والطبيعة تحتاج إلى بصرٍ يرى الدلالة، والفؤاد هو الذي يجمع ذلك كله في يقينٍ وشكرٍ وسجود. فإذا تعطل السمع والبصر، كان الخلل في الشكر لا في وفرة الآيات.

ومن أعمق ما في هذين المشهدين أنهما يجمعان بين الموت والحياة: مساكن الهالكين من جهة، والأرض التي تحيا بالماء من جهة أخرى. كأن السورة تقول: انظروا إلى من ماتوا رغم عمرانهم، وانظروا إلى الأرض التي تحيا رغم يبسها. لا تغتروا بالحياة إذا انفصلت عن الحق، ولا تستبعدوا الحياة بعد الموت إذا رأيتم الأرض تحيا بعد قحطها. إن السنن المرئية حولكم تكفي لو كنتم تسمعون وتبصرون.

والقرآن هنا لا يطلب من الإنسان معرفةً معقدة، بل يقظةً صادقة. ليس كل هدىً يحتاج إلى أدواتٍ بعيدة؛ أحياناً يكفي أن تمشي في مساكن من سبقوك، وأن ترى ماءً يساق إلى أرضٍ يابسة، وأن تسأل نفسك: ماذا تقول هذه المشاهد؟ لكن الإنسان حين يفسد داخله قد يحتاج إلى آلاف الأدلة ولا يهتدي، لأن مشكلته ليست في قلة البرهان، بل في ضعف الاستعداد. ولذلك كان المؤمنون إذا ذكروا بآيات الله خرّوا سجداً، أما المعرضون فيمشون في المساكن ولا يسمعون، ويرون الأرض الجرز ولا يبصرون.

إن هذه الآيات تصلح أن تؤسس لما يمكن تسميته «فقه الاعتبار». والاعتبار أن تعبر من الصورة إلى المعنى، ومن المشهد إلى السنّة، ومن الحدث إلى الحقيقة. لا تقف عند المسكن الخالي، بل اعبر إلى مصير أهله. لا تقف عند الماء الجاري، بل اعبر إلى من ساقه. لا تقف عند الزرع، بل اعبر إلى قدرة

الإحياء. لا تقف عند الأكل، بل اعبّر إلى الشكر. فمن لم يعبر بقي حبيس الظاهر، ومن عبر صار الظاهر له بابًا إلى الغيب.

وفي هذا ردُّ على العين الاستهلاكية التي لا ترى في العالم إلا منفعته. الأرض عندها مورد، والماء مورد، والزرع مورد، والتاريخ موردٌ سياحي أو بحثي، أما القرآن فيرى في ذلك كله آيات. لا ينفي المنفعة، فالزرع تأكل منه الأنعام والأنفس، لكنه لا يحبس الأشياء في المنفعة. العالم ليس مخزنًا لاحتياجات الإنسان فقط، بل كتابٌ مفتوحٌ للهداية. والإنسان ليس مستهلكًا فقط، بل قارئٌ مسؤول. فإذا أكل ولم يشكر، ورأى ولم يعتبر، ومرّ ولم يسمع، فقد هبط بنفسه دون مقامه.

ومن هنا يتصل هذا الفصل بالإنفاق في آيات المؤمنين. فالذي يرى الزرع رزقًا من الله، لا يجد الإنفاق مجرد خسارة. إذا كان الله هو الذي ساق الماء، وأخرج الزرع، وأطعم الأنعام والأنفس، فما المال الذي في يدك إلا امتدادٌ لهذا الرزق. ومن رأى الرزق من الله أنفق مما رزقه الله. أما من رأى نفسه المالك المطلق، أمسك وبخل. فالبصر الصحيح يقود إلى الشكر، والشكر يقود إلى البذل.

كما يتصل الفصل بقيام الليل. فالذي يسمع التاريخ ويبصر آيات الحياة لا ينام قلبه نومًا كاملاً. قد ينام الجسد، لكن الفؤاد يبقى قابلاً للاستيقاظ. يرى في الخراب نذيرًا، وفي الزرع بشيرًا، وفي الماء رحمةً، وفي الهلاك عدلاً، فيقوم بين الخوف والطمع. الخوف من أن يصير أثرًا بعد إعراض، والطمع في رحمة من يسوق الماء إلى الأرض الجرز، ويسوق الهداية إلى القلوب الجرز إذا صدقت في طلبها.

وهذه صورة أخرى عظيمة: كما أن الأرض قد تكون جرزاً ثم تحيا بالماء، قد يكون القلب جرزاً ثم يحيا بالوحي. قلبٌ يابسٌ لا ينبت خشوعاً، ولا يثمر شكرًا، ولا يعرف سجوداً، فإذا ساق الله إليه ماء القرآن انفتح وأنبت. لكن كما أن الأرض تحتاج إلى قبول الماء، يحتاج القلب إلى أن لا يكون صخرًا من الكبر. ومن هنا كان ترك الاستكبار شرطاً في آيات المؤمنين: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. الكبر يجعل القلب أرضاً لا تمسك ماء الهداية.

ومن أدب هذه الآيات أنها لا تفصل بين الآفاق والأنفس. الهلاك التاريخي يقول للإنسان: أنت لست خارج السنن. والماء والزرع يقولان له: أنت تعيش على فضلٍ لا تصنعه. فإذا جمع بين الرسالتين عرف نفسه: ضعيفٌ محتاج، ومكلفٌ مسؤول. ومن عرف ضعفه وحاجته ومسؤوليته صار أقرب إلى السجود. أما الذي يرى نفسه قوياً مستقلاً، فلا يسمع ولا يبصر إلا حين يأتيه ما يكسر وهمه.

وفي نهاية هذا الفصل تتكون اللبنة الخامسة عشرة من معمار السورة: إن الله لم يجعل الهداية في الوحي المتلو وحده، بل جعل في التاريخ والطبيعة آياتٍ تقرأ لمن كان له سمعٌ وبصرٌ وفؤاد. مساكن الهالكين تذكر بمصير الإعراض، والأرض الجرز التي يساق إليها الماء تذكر بقدرة الإحياء ورحمة الرزق. غير أن الآيات المرئية قد تصير منسية إذا مات الاعتبار. فمن أراد أن يكون من أهل السجدة فليتعلم أن يسمع التاريخ، ويبصر الرزق، ويقرأ العالم بوصفه كتاباً مفتوحاً على الله، لا بوصفه مادة صامتة للاستهلاك العابر.

## الفصل السادس عشر

### متى هذا الفتح؟ استعجال المكذبين ونهاية الجدل

قال الله تعالى:

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ).

بعد أن أقامت السورة معالم اليقين من كل جهة: من جهة تنزيل الكتاب، ومن جهة الخلق والتدبير، ومن جهة خلق الإنسان، ومن جهة الموت والرجوع، ومن جهة مصائر المؤمنين والفاستقين، ومن جهة التاريخ والطبيعة؛ يأتي صوت المكذبين مرة أخرى، لا طالباً للهداية، بل مستعجلاً ساخرًا:

(مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

وهذا السؤال ليس من جنس سؤال المؤمن الذي يريد البيان ليزداد يقينًا، بل من جنس سؤال المتحدي الذي يريد أن يحول الوعد والوعيد إلى مادة تهكم. إنهم لا يسألون: كيف نهتدي؟ ولا يقولون: ما طريق النجاة؟ بل يقولون: متى؟ كأن القضية عندهم ليست الاستعداد للفتح، بل استبعاده واستعجاله. وهذه حيلة قديمة للنفس المكذبة: إذا لم تستطع أن تبطل الحق، حاولت أن تسخر من مواعده؛ وإذا لم تستطع أن تدفع الوعيد، قالت: لماذا لم يأت الآن؟

والفتح في هذا السياق يحمل معنى الفصل والحسم، سواء في الدنيا أو في الآخرة بحسب ما ذكره المفسرون من وجوه، لكن جوهر المعنى في السورة

واضح: هناك يومٌ يأتي فيه الحسم، فإذا جاء لم يعد الإيمان المتأخر نافعا. والمكذب حين يسأل عن الموعد لا يدرك أن خطورة الفتح ليست في معرفة وقته، بل في الاستعداد له. ما ينفعك ليس أن تعرف متى يأتي، بل أن تكون قبل مجيئه في صف الإيمان. أما أن تجعل الموعد مادة تحدٍ، فهذا من الجهل بحقيقة الزمن الإلهي.

وقولهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يكشف أن السؤال خرج من نفسٍ جعلت تأخر العذاب أو الفتح حجةً على التكذيب. وهذا من فساد النظر؛ لأن الله قد يؤخر لحكمة، ويمهل رحمةً أو استدراجاً أو إقامةً للحجة، وليس تأخر الموعد دليلاً على عدمه. الإنسان قصير النفس، يقيس صدق الوعد بسرعة تحققه وفق توقيته هو، أما الوحي فيعلمه أن الله آجالاً، وأن الأمر يدبر من السماء إلى الأرض، وأن يوماً عند الله ليس كعدّ الناس، وأن الاستعجال لا يغير الحقيقة.

وقد سبق في السورة قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾. فمن فهم هذه الآية لم يسأل سؤال المستعجل الساخر؛ لأنه عرف أن زمن الله ليس خاضعاً لتوتر الإنسان، وأن التأخير جزءٌ من التدبير، وأن الموعد إذا جاء جاء في وقته الحق، لا في الوقت الذي يطلبه المكذب ليختبر به صدق الرسول.

ثم يأتي الجواب:

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

لم يجبههم القرآن بتحديد الموعد، بل بما هو أخطر من الموعد: إذا جاء يوم الفتح فلن ينفع الإيمان المتأخر. وهذا من أبلغ أساليب التربية؛ لأن الإنسان قد

ينشغل بالسؤال عما لا ينفعه، فيرده الوحي إلى ما ينفعه. ليس المهم أن تعرف متى، بل أن تعرف أن هناك لحظة إذا جاءت أغلقت باب التصحيح. ليس المهم أن تربح الجدل حول الموعد، بل أن لا تخسر نفسك عند مجيئه.

وقوله: ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ﴾ يعيدنا إلى مشهد المجرمين: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا... إِنَّا مُوقِنُونَ﴾. هناك آمنوا بمعنى الاعتراف بعد المعاينة، لكنه لم ينفع. وهنا يقرر القرآن القاعدة: يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم. فالإيمان النافع هو إيمان المهلة، إيمان الغيب، إيمان الاستجابة قبل سقوط الحجاب، لا إيمان الاضطرار بعد انكشاف العقابة. من انتظر حتى يرى كل شيء، لم يعد مؤمناً بمعنى الامتحان، بل مقرراً بما لا يستطيع دفعه.

ثم قال:

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

أي لا يمهلون. وهذا مقابل لكل الإمهال السابق في الدنيا: أرسل النذير، ذكروا بالآيات، أذيقوا من العذاب الأدنى لعلهم يرجعون، رأوا مساكن الهالكين، رأوا الماء يساق إلى الأرض الجرز، سمعوا الوحي، أعطوا السمع والأبصار والأفئدة. كل ذلك كان إنظاراً بمعنى من المعاني، مهلة وفرصة وتذكيراً. فإذا جاء يوم الفتح، انتهى زمن الإنظار. ومن لم ينتفع بالمهلة لا يملك أن يطالب بها عند إغلاقها.

وهنا يظهر معنى الزمن في السورة كلها. هناك زمن للتنزيل والتذكير، وزمن للعمل والرجوع، وزمن للصبر واليقين، وزمن للانتظار، ثم هناك زمن للفتح والفصل لا ينفع فيه الإيمان المتأخر. الإنسان يفسد حين يخلط بين هذه

الأزمنة؛ يريد أن يجعل زمن العمل مفتوحًا بلا نهاية، وأن يؤجل الإيمان إلى زمن المعاينة، وأن يطلب البرهان النهائي ثم يطالب بفرصة العمل بعده. لكن القرآن يقرر أن لكل زمن حكمه. الدنيا دار غيب وعمل، والآخرة دار كشف وجزاء.

إن استعجال المكذبين للفتح ليس شجاعة معرفية، بل غفلة عن خطورة ما يستعجلون. كمن يسخر من النار لأنه لم يذوقها، فإذا ذاقها لم يعد سخريته دليل قوة، بل دليل جهل. وهم يقولون: متى هذا الفتح؟ ولو علموا معنى الفتح حين يأتي لما استعجلوه، بل لبادروا إلى الإيمان قبله. ولذلك لم يأت الجواب بما يرضي فضولهم، بل بما يهدم غرورهم: سيأتي يوم لا ينفع فيه ما تؤجلونه الآن.

ومن هنا ينبغي أن نحذر من صورة أخرى من هذا السؤال في الحياة الفردية. قد لا يقول الإنسان بلسانه: متى هذا الفتح؟ لكنه يعيش كما لو أنه يختبر صبر الله عليه؛ يذنب ولا يرى عقوبة عاجلة، فيظن أن الأمر هين؛ يؤجل التوبة ولا يرى الموت قريبًا، فيظن أن المهلة مضمونة؛ يسمع الوعيد ولا يقع في الحال، فيظن أن الوعيد بعيد أو غير واقع. وهذا هو الاستعجال المعكوس: ليس طلبًا صريحًا للعذاب، بل اطمئنان فاسد إلى تأخره. والسورة تردّ على هذا كله: إذا جاء الموعد، لا ينفع الإيمان ولا يكون إنظار.

وهذه الآية أيضًا تؤدّب المؤمنين في مواجهة السخرية. لا ينبغي أن يضطرب المؤمن لأن المكذب يسأل ساخرًا عن الموعد، ولا أن يستعجل هو الآخر ليبهرن صدق الوعد وفق توقيت البشر. عليه أن يثق بأن الله يفصل، وأن الفتح يأتي في وقته، وأن الاستعجال ليس من اليقين. ولذلك ستأتي الخاتمة:

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ). فالمؤمن لا يدخل في لعبة المستعجلين، بل يثبت على الطريق.

ومن اللافت أن السورة بدأت بـ(لَا رَيْبَ فِيهِ)، وختمت تقريبًا بسؤال الذين يرتابون أو يسخرون: (مَتَى هَذَا الْفَتْحُ). بين البداية والنهاية يمرّ القارئ بكل أدلة اليقين، فإذا بقي بعد ذلك يسأل سؤال التهكم، فقد كشف عن قلب لا يريد الهداية. لأن المشكلة لم تعد في نقص البيان؛ لقد جاء الكتاب، وجاءت الآيات، وجاءت النذر، وجاءت مشاهد الآخرة، وجاءت سنن التاريخ والطبيعة. فمن بقي يقول: متى؟ لا يعمل، بل ليسخر، فقد وضع نفسه في موضع الخطر.

إن هذه الآية تجعل المؤمن يعيد ترتيب أسئلته. بدل أن يسأل: متى يأتي الفتح؟ يسأل: أين أنا يوم يأتي؟ بدل أن يسأل: متى القيامة؟ يسأل: ماذا أعددت لها؟ بدل أن يسأل: لماذا لم يعاقب الله الظالمين بعد؟ يسأل: كيف أثبت على الحق حتى يفصل الله؟ بدل أن يسأل عن مواعيد الغيب بدافع الفضول، يسأل عن مقتضى الإيمان بالغيب في عمله الآن. فالسؤال القرآني ليس إلغاءً للفضول البشري فقط، بل تحويل له من العبث إلى النجاة.

وهكذا يتبين أن الجهل بالموعد نفسه جزء من الامتحان. لو عرف الناس ساعة الفتح على وجه التحديد، لأجل كثيرون إيمانهم إلى الحافة، ولتعاملوا مع التوبة كمناورة زمنية. لكن الله أخفى الموعد لتبقى الحياة كلها في دائرة الاستعداد، وليكون الإيمان صادقًا لا حسابًا انتهازيًا، وليظهر من يعبد الله في الغيب ممن لا يتحرك إلا عند رؤية السيف. إن خفاء الموعد رحمة وامتحان: رحمة لأنه يدفعك إلى الاستعداد الدائم، وامتحان لأنه يكشف هل تؤمن بخبر الله أم تنتظر المعاينة.

وهنا يتصل هذا الفصل بآية (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمُ). هناك أخفى الله للمؤمنين قرة الأعين، وهنا أخفى موعد الفتح عن المكذبين. المؤمن يتعامل مع الخفاء بالإيمان والعمل، فيكرم بخفاء الفضل. والمكذب يتعامل مع الخفاء بالسخرية والاستعجال، فيُفاجأ بيومٍ لا ينفع فيه إيمانه. فالخفاء نفسه قد يكون باب نجاةٍ أو باب فضيحة، بحسب موقف الإنسان منه.

وفي نهاية هذا الفصل تتكون اللبنة السادسة عشرة من معمار السورة: الإنسان المكذب لا يكتفي بالإعراض، بل قد يحوّل الغيب إلى مادة تهكم، فيسأل: متى هذا الفتح؟ لكن القرآن لا يجيبه بإشباع فضوله، بل يذكره بأن يوم الفتح إذا جاء انتهى زمن النفع والإمهال. فليست العبرة بمعرفة الموعد، بل بالاستعداد قبله. ومن فهم هذه الحقيقة لم يجعل تأخر العاقبة سبباً للغفلة، ولم يجعل سخرية المكذبين سبباً للاضطراب، بل علم أن الله مواعيده، وأن الإيمان النافع هو ما كان قبل الفتح، قبل المعاينة، قبل أن يقال للغافل: لا إيمان ينفع الآن، ولا مهلة تُعطى بعد اليوم.

## الخاتمة

فأعرض عنهم وانتظر: يقين الساجد في زمن المكذبين

قال الله تعالى:

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ).

تختم سورة السجدة بهذه الجملة الهادئة الحاسمة، بعد رحلة كثيفة من بناء اليقين، وكأن السورة كلها كانت تُعدّ القلب لهذه النهاية: أن لا يضطرب أمام المكذبين، ولا يستنزفه جدلهم، ولا ينهار تحت سخريتهم، ولا يستعجل مواعيد الله ليثبت صدقه أمامهم، بل يمضي في يقينه وسجوده وانتظاره. فالحق لا يحتاج إلى عصبية قلقة، والمؤمن لا يحتاج أن يلاحق كل معاندٍ إلى آخر أبواب الجدل، والوحي لا يخسر شيئاً لأن قوماً قالوا: افتراه، أو قالوا: متى هذا الفتح؟

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ).

الإعراض هنا ليس ترك البلاغ ابتداءً، ولا انسحاباً من واجب الدعوة، فقد بلغ النبي ﷺ، وقامت الحجة، ونزل الوحي، وتتابع الآيات. لكنه إعراضٌ بعد البيان، حين يتحول الجدل إلى عناد، والسؤال إلى سخرية، والتأجيل إلى مكابرة. هناك لحظة لا يكون فيها استمرار الجدل هدايةً، بل استنزافاً. فيأتي الأمر الإلهي: أعرض عنهم. لا لأن الحق ضعيف، بل لأن العناد لا يستحق أن يجعل المؤمن أسيراً له.

وهذا معنى يحتاجه كل حامل حق: أن يعرف متى يبيّن، ومتى يصبر، ومتى يعرض. ليس كل إعراض هروباً، كما أن ليس كل جدل شجاعة. قد يكون الإعراض حكماً حين يستنفد البيان غايته، وقد يكون الصمت ثباتاً حين يتحول الكلام إلى ساحة عبث. والمؤمن لا يقيس صدق الحق بقبول المعاندين له؛ فقد رفضت أممٌ رسلها، وقال مكذبون ما قالوا، وبقي الوحي حقاً من رب العالمين.

ثم قال:

(وَانتَظِرْ).

والانتظار هنا ليس فراغاً ولا سلبية، بل عبادة يقين. إنه انتظار الواثق بوعد الله، لا انتظار العاجز الذي لا يملك عملاً. انتظر وأنت ماضٍ في البلاغ والعمل، انتظر وأنت تسجد، انتظر وأنت توقن، انتظر وأنت تصبر، انتظر وأنت لا تستعجل الفتح وفق توقيت المكذبين. إن الانتظار القرآني فعلٌ داخليٌّ عظيم؛ يضبط النفس أمام طول الطريق، ويحميها من استعجال الثمرة، ويمنعها من أن تتبع الحق تحت ضغط اللحظة.

وهذا الانتظار لا يفهم إلا في ضوء السورة كلها. لقد قالت السورة إن الله يدبر الأمر، وإن يوماً عنده ليس كأيام الناس، وإنه يفصل يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، وإن يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم. فمن عرف كل ذلك استطاع أن ينتظر. أما من لم يوقن بتدبير الله وفصله، فلن يحتمل الانتظار؛ إما أن يستعجل، أو ينهار، أو يساوم، أو يدخل في جدلٍ لا ينتهي. اليقين وحده يجعل الانتظار قوة لا ضعفاً.

(إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ).

يا لهذه الخاتمة العجيبة. الجميع ينتظر، لكن شتان بين انتظارٍ وانتظار. المؤمن ينتظر وعد الله، والمكذب ينتظر ما سيكشف كذبه. المؤمن ينتظر وهو يعمل، وهم ينتظرون وهم غافلون. المؤمن ينتظر الفتح بوصفه تحققاً للحق، وهم ينتظرونه وهم يظنون أنه لن يأتي أو يسخرون من مواعده. المؤمن ينتظر ومعه سجوده وقيامه وإنفاقه وصبره، وهم ينتظرون ومعهم إعراضهم وتكذيبهم ونسيانهم. في النهاية، لا أحد يخرج من دائرة الانتظار؛ لكن العبرة: ماذا أعددت لما تنتظر؟

هذه الخاتمة تربط أول السورة بآخرها. بدأت السورة بـ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وانتهت بـ﴿وَأَنْتَظِرُ﴾. فمن أيقن بالتنزيل استطاع الانتظار. بدأت بتثبيت المصدر، وانتهت بتثبيت الموقف. بدأت بإزالة الريب من الكتاب، وانتهت بإزالة الاضطراب أمام المكذبين. وكأنها تقول: إذا عرفت أن هذا الكتاب من رب العالمين، فلا تجعل ضجيج الناس يهزك؛ اسجد وامض وانتظر.

وقد رأينا في هذه السورة أن السجود ليس حركةً منفصلةً عن المعنى، بل ثمرة بناءٍ كامل. فالإنسان الساجد في سورة السجدة هو الذي عرف أن القرآن تنزيلٌ لا ريب فيه، وأن اتهام الوحي بالافتراء حيلة إعراض، وأن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما ويدبر الأمر، وأنه عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم، وأن الإنسان بدأ من طينٍ وماءٍ مهين، ثم سواه الله ونفخ فيه من روحه ووهبه السمع والأبصار والأفئدة، وأن قلة الشكر هي الجرح الأول في علاقة الإنسان بنعم الله.

وهو الذي عرف كذلك أن إنكار البعث مأزق عقلٍ وقلب، وأن الذين يستبعدون الخلق الجديد إنما يكفرون بقاء ربهم، وأن ملك الموت موكلٌ بالبشر، وأن

الرجوع إلى الله حتمي، وأن المجرمين سينكسون رؤوسهم عند ربهم ويقولون: أبصرنا وسمعنا، ولكن بعد فوات النفع، وأن العذاب الأدنى قد يكون بآباً للرجوع قبل العذاب الأكبر، وأن أظلم الناس من ذُكِرَ بآيات ربه ثم أعرض عنها.

ثم رأى في قلب السورة صورة المؤمن الحقيقي: إذا ذُكِرَ بآيات الله خرَّ ساجداً، وسبَّح بحمد ربه، ولم يستكبر، وجافى جنبه المضجع، ودعا ربه خوفاً وطمعاً، وأنفق مما رزقه الله. ثم سمع الوعد: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، فعلم أن الخفاء الصادق لا يضيع، وأن الله يدّخر لأهل الليل والعمل ما لا تستطيع نفس أن تحيط به. ثم أدرك أن المؤمن والفاسق لا يستويان، وأن جنات المأوى ليست كالنار، وأن الذوق الأخروي حق كما أن العمل الدنيوي حق.

ثم انتقل إلى تاريخ الرسالات، فعلم أن الله آتى موسى الكتاب وجعله هدىً لبني إسرائيل، وأن الإمامة في الهدى لا تكون إلا بالصبر واليقين، وأن الله يفصل يوم القيامة فيما اختلف الناس فيه. ثم رأى السنن في مساكن الهالكين وفي الأرض الجرز التي يسوق الله إليها الماء، فتعلم أن التاريخ يسمع لمن له قلب، وأن الطبيعة تبصر لمن له بصيرة، وأن الماء والزرع والمساكن الخالية ليست مشاهد صامتة، بل آيات لمن لا يزال قادراً على السمع والبصر. ثم واجه سؤال المكذبين: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾، فعلم أن معرفة الموعد ليست هي النجاة، بل الإيمان قبل الموعد.

إن السورة كلها، بهذا المعنى، هندسةٌ للانتقال من الريب إلى السجود، ومن الغفلة إلى الانتظار، ومن الاستكبار إلى الانكسار، ومن النوم المطلق إلى

يقظة الليل، ومن الشح إلى الإنفاق، ومن النظر العابر إلى الاعتبار، ومن السؤال الساخر إلى اليقين الصابر. إنها لا تقدم الإيمان بوصفه شعورًا داخليًا فقط، بل بوصفه نظامًا كاملاً يعيد ترتيب الإنسان: مصدر معرفته، ونظرته إلى جسده، وفهمه للموت، وعلاقته بالزمن، وموقفه من المال، وطريقته في النوم، واستجابته للألم، وصبره أمام الخلاف، وقراءته للتاريخ والطبيعة.

ولذلك فالسجدة في السورة ليست حادثةً داخلها فحسب، بل اسمها وروحها وخلاصتها. السجدة هي الجواب العملي على تنزيل الكتاب. السجدة هي الوجه الآخر لترك الاستكبار. السجدة هي الانخفاض المختار الذي ينقذ من النكس الاضطراري. السجدة هي اعتراف الجسد بما آمن به القلب. السجدة هي عودة الطين إلى خالقه، وارتفاع الروح بالعبودية، وشكر السمع والبصر والفؤاد، واستعداد للقاء الرب قبل أن يأتي اللقاء.

ومن أخطر ما تعلمه السورة أن الإنسان لا يستطيع أن يبقى محايدًا أمام الآيات. إذا دُكر، فإما أن يسجد، وإما أن يعرض. إذا رأى مساكن الهالكين، فإما أن يسمع، وإما أن يمر. إذا رأى الماء يساق إلى الأرض الجرز، فإما أن يبصر، وإما أن يستهلك النعمة. إذا جاءه الألم الأدنى، فإما أن يرجع، وإما أن يقسو. إذا سمع بالفتح، فإما أن يستعد، وإما أن يسخر. فالحياد الطويل وهمٌ من أوهام النفس؛ كل يوم يضع الإنسان في أحد الطريقين.

وهنا ينبغي أن يختم القارئ السورة بسؤالٍ لا بسرٍ فقط: أين أنا من هذه الهندسة؟ هل القرآن عندي تنزيلٌ لا ريب فيه، أم مادةٌ أتناولها حين توافق مزاجي؟ هل إذا دُكرت آيات ربي يتحرك فيّ سجودٌ وخشوع، أم أعرض كأن الخطاب لا يعنيني؟ هل لفراشي سلطانٌ كاملٌ عليّ، أم في حياتي لحظاتٌ

ينتصر فيها اليقين على الراحة؟ هل أنفق مما رزقني الله، أم أتعامل مع الرزق كأنه ملكٌ مقطوع الصلة بالرازق؟ هل أقرأ التاريخ والطبيعة كآيات، أم أراها صورًا عابرة؟ هل أنتظر وعد الله بطمأنينة العاملين، أم أعيش كمن لا ينتظر إلا الدنيا؟

إن سورة السجدة لا تطلب منك أن تكره الحياة، بل أن تعرف موضعها. لا تطلب منك أن تحتقر الجسد، بل أن لا تعبد. لا تطلب منك أن تهجر النوم، بل أن لا يكون النوم سلطانًا على قلبك. لا تطلب منك أن تفزع من الموت فزعًا يدمرك، بل أن تستعد للرجوع استعدادًا يطهرك. لا تطلب منك أن تعيش على الخوف وحده، بل أن تدعو ربك خوفًا وطمعًا. لا تطلب منك أن تعطل عقلك، بل أن تجعله يسجد للحق حين يعرفه، لا أن يستكبر عليه.

وهذا هو سرّ السورة: أنها تصنع إنسانًا لا ينكسر إلا لله، ولذلك لا تنكسره الدنيا كما تنكسر قلوب الغافلين. من سجد لله عرف كيف يقف أمام الخلق، ومن انتظر وعد الله لم تستفزه مواعيد المكذبين، ومن قام في الليل لم تعد العلانية تملكه، ومن أنفق مما رزقه الله لم يعد المال إلهه، ومن آمن بالبعث لم يعد الجسد سجنه، ومن عرف أن الله يفصل لم يعد الخلاف يسرق طمأنينته.

وفي الخاتمة، يبقى الأمر الإلهي: (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ)، لا كعبارة تاريخية فقط، بل كمنهجٍ للمؤمن في كل زمن. أعرض عن العناد حين يستنفذ البيان، وانتظر وعد الله دون اضطراب. أعرض عن الضجيج الذي يريد أن يسحبك من سجودك، وانتظر وأنت تعمل. أعرض عن السخرية التي تسأل: متى؟ وانتظر وأنت تعرف أن الموعد آت. أعرض عن كل ما يريد أن يجعل الوحي

موضع اتهامٍ دائم، وانتظر بقلبٍ يعرف أن الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين.

إنهم منتظرون، وأنت منتظر. لكن فليكن انتظارك سجودًا، لا غفلة؛ عملاً، لا فراغًا؛ يقينًا، لا ارتباكًا؛ خوفًا وطمعًا، لا أمنيًا كاذبًا ولا يأسًا قاتلًا. فمن انتظر وهو ساجدٌ، وجد يوم الفتح أنه لم يكن ينتظر عبثًا. ومن انتظر وهو معرضٌ، عرف عند الفتح أن كل ما سخر منه كان حقًا، ولكن بعد أن لا ينفع الإيمان ولا يُمدّ في المهلة.

وبذلك تختتم سورة السجدة بناءها العظيم: كتابٌ منزل، وربٌّ خالقٌ مدبر، وإنسانٌ مخلوقٌ مكرمٌ مكلف، وبعثٌ لا ريب فيه، وموتٌ موكلٌ، ومجرمون ناكسو الرؤوس، ومؤمنون تجافي جنوبهم المضاجع، وقرة أعينٍ مخبوءة، وطريقان لا يستويان، وهدايةٌ ممتدةٌ عبر الرسالات، وإمامةٌ بالصبر واليقين، وآياتٌ في التاريخ والماء والزرع، وفتحٌ لا ينفع بعده إيمان المتأخرين، ثم انتظارٌ حاسم. ومن دخل هذه السورة بقلبٍ مفتوح، خرج منها وهو يعرف أن أعظم ما يفعله الإنسان في هذا الوجود أن يسجد لله قبل أن تنكسر الرؤوس، وأن يقوم من غفلته قبل أن يطلب الرجعة، وأن يجعل حياته كلها جوابًا واحدًا على آيات ربه: سمعنا، وأطعنا، وسجدنا، وانتظرنا وعدك يا رب العالمين.

تمت بحمد الله وتوفيقه

## فهرس الكتاب

| الصفحة | الموضوع                                                                     |
|--------|-----------------------------------------------------------------------------|
| 1      | الغلاف                                                                      |
| 2      | صفحة العنوان                                                                |
| 3      | بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ                                       |
| 7      | تمهيد: لماذا سورة السجدة؟                                                   |
| 12     | المقدمة الكبرى: السجدة بوصفها انكسار الإنسان أمام الحقيقة                   |
| 17     | الفصل الأول: تنزيل الكتاب وبناء مصدر اليقين                                 |
| 24     | الفصل الثاني: الوحي في مواجهة اتهام الافتراء                                |
| 33     | الفصل الثالث: خلق السماوات والأرض وهندسة التدبير                            |
| 41     | الفصل الرابع: الإنسان بين الطين والتسوية ونفخة الروح                        |
| 51     | الفصل الخامس: السمع والبصر والفؤاد: أمانات الشكر وشهود القيامة              |
| 59     | الفصل السادس: مازق البعث حين يقيس الإنسان قدره الله على حدود جسده           |
| 68     | الفصل السابع: ملك الموت والحقيقة التي لا يستطيع الإنسان إلغائها             |
| 75     | الفصل الثامن: المجرمون ناكسو الرؤوس: حين ينكسر الكبر متأخراً                |
| 85     | الفصل التاسع: العذاب الأدنى: حين يكون الألم باباً أخيراً للرجوع             |
| 94     | الفصل العاشر: مؤثرات الإيمان الباطن في الجسد الظاهر                         |
| 104    | الفصل الحادي عشر: فلا تعلم نفس: جزاء الحفاء بحفاء الفضل                     |
| 113    | الفصل الثاني عشر: أقمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً؟ الفصل الحاسم بين الطريقين |
| 121    | الفصل الثالث عشر: موسى والكتاب: وحدة الهداية عبر الرسالات                   |
| 126    | الفصل الرابع عشر: الإمامة بالصبر واليقين                                    |
| 134    | الفصل الخامس عشر: السنن المرئية والآيات المنسية                             |

| الموضوع                                                                   | الصفحة |
|---------------------------------------------------------------------------|--------|
| الفصلُ السادسَ عشر: متى هذا الفتح؟ استعجالُ المُكذِّبينَ ونِهايَةُ الجدلِ | 142    |
| الخاتمة: فأعرض عنهم وانتظر: يَقيُنُ السَّاجِدِ فِي زَمَنِ المُكذِّبينَ    | 148    |